

**جذور الوعي**

اسم الكتاب: جذور الوعي

تأليف: د. هبة مهدي

القطع: 14\*20

سنة النشر: 2024

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 31953 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 2 - 586 - 844 - 977 - 978



دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانوناً بسجل تجاري رقم / ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / [shahnda71@gmail.com](mailto:shahnda71@gmail.com)



# جذور الوعي

رواية

د. هبة مهتدي



# الملكية الفكرية

يمنع نقل أو نسخ أو اقتباس أو ترجمة هذه الرواية أو أي جزء منها بأي صورة من الصور، وبأية وسيلة طباعية أو إلكترونية، دون الحصول على موافقة خطية من المؤلفة.

"الشخصيات والأحداث الخاصة في هذه الرواية من وحي خيال المؤلفة، وأُخلي مسؤوليتي عن أي تطابق بينها وبين الواقع."

ديسمبر (٢٠٢٤)





إلى أول من كان لي في هذه الدنيا صديق  
إلى السند والدعم والقُدوة والخلق الجميل  
إلى أخي الوحيد والغالي والحبيب شريف





## ١. هل أنا هنا حقًا؟

ضرب منبه هاتفي.

أقفلته، لكنه عاد ليضرب بعد خمس دقائق.

عدت لإغلاقه مرة أخرى، إلا أن أصوات الطيور المتنوعة أيقظتني. فتحت عيني لأجد أشعة الشمس تملأ الغرفة، رغم الستائر المغلقة.

إنها الساعة السادسة صباحًا. من يصدق أن الشمس تسطع بهذه القوة في السادسة صباحًا؟! لو كنت في مصر، لقلت إنها الثانية عشرة ظهرًا.

لا زلت غير معتاد على هذا الكم الهائل من أصوات الطيور، ولكن يجب أن أعترف أن رؤيتها أصبحت من أجمل مصادر السعادة والبهجة لي.

هذه الطيور التي كنا نراها فقط في محلات طيور الزينة والحيوانات الأليفة، حيث كانت تبدو حزينة ومحبوسة داخل أقفاصها، أراها هنا حرة طليقة. تغرد، وتتنقل بين أغصان الأشجار، مرفرفة بجناحيها في سعادة.

حتى الآن، لا يمكنني رؤية طائر الرينبو لوريكيت (Rainbow Lorikeet bird) بألوانه العديدة الخضراء والحمراء دون التوقف لالتقاط صورة له. أما ببغاء الكوكاتو الأبيض ذو العرف الأصفر (Kokatoe)، الذي ينفشه عاليًا حين يطير أو يتحرك، فقد صورت العديد من الفيديوهات له، لأن الكثير منه يسكنون أشجار الحديقة

العامة القريبة من شقتي... أقصد الشقة التي استأجرتها مع زميل آخر يدرس في نفس الجامعة.  
أما الأشجار والزهور، فحدث ولا حرج. في طريقي إلى الجامعة، أجد العديد منها، وحتى الحرم الجامعي به مساحات خضراء عديدة. هذا هو الحال في معظم الجامعات هنا. وفي كل حي تقريبًا تجد حديقة عامة أو أكثر، حيث يمكن لسكان الحي التنزه فيها، أو ممارسة رياضة المشي، أو اصطحاب كلابهم الأليفة إليها.  
مرت عدة شهور، ولا زلت أحيانًا أسأل نفسي، خاصة حين أستيقظ مبكرًا:

هل ما أعيشه الآن حقيقة وواقع؟ هل نجحت الخطة؟ هل وصلت بالفعل إلى تلك القارة البعيدة التي تحيطها المحيطات من كل الاتجاهات؟

وأجيب نفسي: نعم، أنا هنا. لقد تحقق الحلم، وهأنذا أدرس الآن في برزبان عاصمة ولاية كوينزلاند بأستراليا.  
من كان يمكنه تصديق أن ذلك سيحدث؟ كان حلمًا بعيد المنال، ولكن الحمد لله، ها أنا هنا. وصلت منذ ستة أشهر، بعد رحلة طويلة امتدت لسنوات من التقدم للجامعات المختلفة والمنح المتاحة وتحسين مستوى لغتي الإنجليزية، والأخذ بكل الأسباب الممكنة. دق هاتفي وكانت المتصلة أمني.

كعادتها، لا تحب أن يمر يوم واحد دون تواصل بيننا، ولو حتى مكالمة قصيرة لو كنت مشغولًا، تقول لي: "يكفيني أن أسمع

صوتك أو أراك في فيديو ولو بضعة دقائق لأستطيع مواصلة حياتي، فهذه المكالمات صارت كترياق الحياة لي." الحق أنني لست فقط أحبها، بل أحياناً أشعر أنني أشفق عليها لأنني ابنها الوحيد وهي امرأة رقيقة المشاعر، تحاول قدر استطاعتها أن تكون مثالية، ولكنها تحتكم لمعايير يصعب الاعتراف بها في عالم تحكمه المادة والجشع والقوة.

هي تحب النباتات وتعطف عليهم وترويههم وتعتني بهم وكأنهم أطفال صغيرة، وأبي يسخر من ذلك ويقول لها: "يبدو أنك في عقلك الباطن كنتِ ترغبين أن تكوني فلاحه تزرعين في الأرض." كما أن أمي اعتادت على تربية القطط، وكان دوماً لديها قطة واحدة على الأقل منذ طفولتها، وحين تزوجت، أحضرت معها قطتها المفضلة (مشمشة)، التي كان لونها مشمشياً بالفعل. لا زلت أتذكر بعض مشاهد من لعبها معي في طفولتي المبكرة، وبعد أن ماتت، حزنت عليها أنا وأمي فترة. ثم أحضرت أمي من بيت جدي قطة صغيرة أسميناه (چون)، وهذا كان رفيقي الدائم في طفولتي. كنت أنا وأمي نتعامل معه وكأنه أحد أفراد أسرتنا. أما أبي فكان يركله بقدمه كلما اقترب منه، وأحس (چون) كره أبي له، فبادله كرها بكره وخوف وصار يتعد ويختفي بعيداً بمجرد سماع صوته قادماً من العمل.

لا أدري لِمَ يَتملكني شعور أن حياة أمي كانت كحياة الأسطورة سيزيف، الذي عاقبته الالهة بحمل حجر إلى قمة الجبل، وكلما

حملة ووصل إلى القمة، نزل الحجر مرة أخرى إلى القاع، وهكذا عليه أن يحمله مرة أخرى.

هي أيضًا كان لديها أحجار تحملها كل يوم: حجر ذهابها للبنك، كل يوم للعمل، وبعد عودتها من البنك كانت تنتظرها أحجار أخرى لا تنتهي مثل مساعدتي في واجباتي المنزلية، واصطحابي إلى دروس السباحة، وإعداد الطعام، وغسل الأطباق، وترتيب المنزل من الفوضى التي أقوم بها أنا وأبي، ووضع ملابسنا المتسخة في الغسالة، ونشرها... وهكذا. كلما انتهت في يومها من هذه الأعباء، فإنها ستجد بعضًا منهم أو أغلبهم قد تجمع، وعليها أن تقوم به مرة أخرى. بعضهم يعود بصفة يومية، وبعضهم قد يحدث كل يومين أو أكثر، ولكن في النهاية لا شيء يختفي أو لا يعود.

الغريب أنها مع كل ذلك كانت مصدر البسمة والحنان لي... وإن كانت مثل أي أم أحيانًا تشعر بالضجر وتتبرم، وأحيانًا تجهر بشكواها طالبة منا مراعاة ما تفعله كي لا نزيد من أعبائها أكثر وأكثر بإهمالنا، ولكن كما هو المعتاد ننتبه قليلًا، ثم تعود ريمة إلى عاداتها القديمة وتنتشر لعبي في أرجاء المنزل، وتنتشر أغراض أبي وأكواب القهوة الفارغة في حجرة المعيشة، ولكن أُمي أبدًا لم تتوقف عن أداء واجباتها إلا حين تمرض مرضًا شديدًا، وحينها كان منزلنا ينقلب إلى حالة من الفوضى للدرجة التي تجعلني ألاحظ كم الأعباء التي تحملها هي على كاهلها، والمهام التي تقوم بها دون أن نشعر.

## ٢. دهشة وخوف وإنكار

بعد أسبوع شاق من الانغماس في أبحاث الدكتوراه التي أعمل عليها حاليًا حول تغيّرات المناخ وعلاقتها بالكوارث الطبيعية، قررتُ أخذ استراحة جيدة في عطلة نهاية الأسبوع. وخطر ببالي أن أزور حديقة جميلة سمعت عنها منذ قدومي إلى منطقة فيج تري بوكت (Fig Tree Pocket) القريبة من برزبان.

ذهبت إلى هناك، واستمتعت كثيرًا برؤية حيوان الكوالا، ذلك الكائن الكسول الذي يقضي معظم يومه نائمًا، والذي تشتهر به أستراليا، وكذلك الكناغر التي يمكن مشاهدتها في العديد من المناطق، وأمّهات الكناغر يحملن صغارهن في بطونهن، ويطلقون برؤوسهم الصغيرة منها. بالطبع، تعتبر هذه الحيوانات جزءًا من الرمز القومي لأستراليا.

ثم توجهت إلى إحدى المناطق الظليلة حيث كانت توجد أشجار كبيرة، منها شجرة تين موريتون باي (Moreton Bay Fig Tree) الرائعة، التي تعتبر جزءًا من الجمال الطبيعي في المنطقة. بين تلك الأشجار، التي تتمتع بأفرع ضخمة وجذور غائرة، كانت الأجواء هادئة ومريحة.

أخذت وقتي في التأمل والاستمتاع بالطبيعة. فجأة، سمعتُ صوتًا نسائيًا ينادي:

"باسم... يا باسم!"

تلفتُ حولي، باحثًا عن مصدر الصوت، ولم أجد أحدًا. اعتقدتُ أن إرهافي جعلني أسمع أشياء غير موجودة. ابتسمتُ لنفسي وقررتُ الاستمتاع بما حولي، لكن... الصوت عاد مرة أخرى!

• "يا (باسم)... أود التحدث إليك قليلًا"

• "من المتحدث؟ من أنتِ؟"

• "لا يهم... المهم أني أريد التحدث معك في موضوع هام."

شعرت بالخوف ونظرت يمينًا ويسارًا في محاولة مني للوصول للمتحدثة بلا جدوى.

• "علام تبحث يا باسم؟"

• "أبحث عنك... أين أنتِ؟"

• "أنا أمامك."

• "لا يوجد أحد أمامي سوى الشجرة"

ضحكت بصوت عالٍ:

• "أنا هي" في تلك اللحظة، وجدتها شجرة عتيقة ضخمة، جذعها

المتشعب يحكي قصصًا لا تُحصى عن الزمن، لاح لي وجه جدة

متقدمة في العمر بين تعرجات قشرتها. كانت ملامحها تحمل وقار

السنين، خطوط الزمن تمتد برفق على جبينها، وعيناها العميقتان

تلمعان بحكمة وتجارب لا حصر لها. أوراقها الكثيفة تتدلى كسنابل

الشعر الأبيض، تتراقص مع الريح وكأنها تهمس بحكايات

الماضي. سمعت صوتًا دافئًا ينبعث منها، ممتلئًا بحنان لم أسمع

مثله من قبل، وكأن الشجرة تحتضن كل من يقف أمامها برائحة الأرض ودفء الجذور. ارتجفت وقفزت بعيداً عن الشجرة وقلت: • "بسم الله الرحمن الرحيم... سلام قول من رب رحيم، أنا لا أحب مثل هذه الدعابات، من فضلك، دعيني وشأني."

• "دعابات! ماذا تقصد بالدعابات؟"

• "أقصد الكاميرا الخفية أو أحد برامج المقالب الأخرى. أنا لا أريد المشاركة في هذه اللعبة أياً كنت."

ضحكت مرة أخرى فشعرت وكأن الحديقة كلها تهتز لضحكاتها: • "أنا لست كاميرا خفية، أنا الشجرة الواقفة أمامك، وأريد التحدث معك عن مستقبلنا."

• "مستقبلنا! ما هذا الهراء؟ سوف أفقد عقلي! نتحدثين كأنك خطيبتي وتريدين الاطمئنان على مستقبلك معي. أولاً، لا يوجد شجر يتحدث، ثانيًا إن تحدث (وهذا مستحيل) لن يتحدث معي عن مستقبلنا معًا."

• "معك حق يا باسم، نحن لا نتحدث ولكن فاض الكيل بنا منكم أيها البشر، فecedنا اجتماعًا موسعًا على أعلى المستويات في 'هيئة الشجر المتحدة' وتم..."

• نعم! ماذا تقولين؟ هل قلتِ هيئة الشجر المتحدة؟

• نعم، إنها هيئة مثل هيئة الأمم المتحدة لديكم.

• يا سلام!

• ولكنها أفضل منها.

- لا والله، أفضل من الأمم المتحدة!
- نعم، أفضل، فعلى الأقل نحن الأشجار، ليست بيننا حروب ولا نزاعات، ولا تحتل مجموعة من الأشجار الأرض الخاصة بأشجار أخرى. هل سمعت عن شجرة تقتل جارتها الشجرة؟
- لا طبعًا.
- هل سمعت عن شجرة تخون إخوتها الأشجار؟
- أكيد لا.
- هل سمعت عن شجرة تنمر على شجرة؟
- الله أعلم.
- هل وجدت شجرة تكره شجرة لأنها تعبد إلهاً غير الذي تعبد به هي؟
- فهمت قصدك، ووصلت الفكرة... لا داعي للاستمرار في ذكر أمثلة. ماذا فعلت هيئتكم تلك؟
- لقد قامت باتخاذ قرار بموافقة جميع الأعضاء بضرورة التواصل معكم بخصوص مستقبلنا. تم ترشيحي للقيام بمهمة التواصل تلك.

- مستقبلنا ثانية! مستقبل من يا ست؟
- لعلي أخطأت حين قلت "مستقبلنا" دون توضيح. أنا أقصد مستقبل الأشجار والبشر. ألم أقل لك إنها مهمة تاريخية؟ وسندخل التاريخ أنا وأنت يا باسم، وسيتم ذكرنا دومًا بأننا أول من سمح للبشر بالحديث مع الأشجار، مع أننا نعيش معًا على

سطح هذا الكوكب منذ ملايين السنوات. لقد شرفت باختياري للقيام بهذه المهمة التاريخية. وأعتبر هذا وسامًا على صدري يتوج عملي المخلص والدؤوب في هيئة الشجر المتحدة أكثر من ثلاثمائة عام.

• "يا مثبت العقل يا رب! فلنفترض أن ما تقولينه سعادتك يا سيدتي الشجرة حقيقيًا وأنه تم اختيارك، ممكن أعرف لماذا تم اختياري أنا للحديث عن مستقبلنا معًا؟"

• "سؤال جميل! لقد وقع الاختيار عليك بعد تصفيات عديدة للكثير من المرشحين ولأسباب عديدة، كلها في التقرير المكتوب عنك."

• "تقرير عني أنا!"

• "نعم، سأقرأه لك:"

باسم، شاب مصري، يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، متخرج من كلية العلوم قسم النبات وحصل على ماجستير في هذا التخصص. محب للبيئة ومتحمس لقضاياها، حتى موضوع الدكتوراه الذي يدرسه حاليًا مرتبط بالبيئة. باسم يتميز بروح مسالمة لدرجة أنه قرر الامتناع تمامًا عن تناول اللحوم، وأصبح نباتيًا حتى لا يشعر بالذنب تجاه الحيوانات. هذا القرار يعكس طيبة قلبه. يقضي معظم وقته في كتابة أبحاثه حول تأثير تغير المناخ والكوارث الطبيعية على الغابات والبيئة، وفي أوقات العطلات يجد سعادته في التأمل بالطبيعة والتواجد بين الأشجار

والنباتات، مما يعزز تعاطفه مع قضايانا البيئية. وبما أنه شاب عربي يدرس في أستراليا، يمكنه التواصل بسهولة مع العالمين العربي والغربي. كما أن لديه أصدقاء من مختلف الجنسيات والديانات، ويُعرف بروحه الطيبة ويحبّه الجميع. بفضل شخصيته المحبوبة، يمكنه نشر رسالتنا بسهولة. مؤخرًا، خرج باسم من تجربة حب غير موفقة مع فتاة اسمها.."

• "انتظري، توقفي عن الكلام... ما هذا؟ أنتم تعلمون عني كل شيء! أنا لا أصدق ما يحدث. مؤكد أنا أحلم... لا يمكن أن أتحدث مع شجرة عن حياتي الشخصية... أرجوكِ توقفي عن الحديث... أنا مؤكد أحلم... فكل ما يحدث الآن شيء لا يُصدق ولا يدخل العقل أبدًا."

• "أعلم ذلك، وأقدر شعورك، ولكن يا باسم..."  
• "لا أريد أن أسمعكِ. أشعر بزغلة شديدة وصداع فظيع... كما أن الأرض تتمايل تحت قدمي، والأشجار تلف حولي، ولا أستطيع أن أتنفس جيدًا..."

أفقتُ لأجد نفسي في إحدى عيادات الطوارئ والمحاليل معلقة في يدي، ثم جاءت ممرضة وجهها يشع بالطيبة وابتسمت نحوي، ثم قالت لي:

• "كيف تشعر الآن؟"  
• قلت لها: "بخير... ولكن أين أنا وماذا حدث؟"

- "لقد وجدك رجال الأمن في الحديقة مغشيًا عليك، وأحضروك لنا هنا. يبدو أنك لم تشرب سوائل بدرجة كافية اليوم، وتعرضت للشمس وحرارة شديدة لم يحتملها جسدك. هذا يحدث كثيرًا مع السياح والمغتربين الذين لم يعتادوا الحر والرطوبة في الصيف هنا، ولا يحملون معهم سوائل تكفيهم في أي رحلة يقومون بها." ثم ضحكت معي وقالت لي مداعبة:
  - "لن تصدق ماذا كنت تقول مهلوسًا حين أتيت."
  - "ماذا كنت أقول؟"
  - "كنت تقول إنك تحدثت مع شجرة!"
- تنهدت الصعداء قائلًا في سري: الحمد لله أنني لم أفقد عقلي وأن الأمر كان مجرد ضربة شمس.

### ٣- التآرجح بين الشك واليقين

مرت الأيام، وحاولتُ أن أنشغل بالعمل والأبحاث، لكنني لم أستطع نسيان ما سمعته من الشجرة. تارة أضحك على نفسي وأقول: "مجرد تهيؤات وهلاوس"، وأحياناً أقول: لعلي ورثت حب النباتات من أمي، ولعل حديث الشجرة وكل ما يحدث لي هذه الأيام هو نوع من الحنين إليها وإلى حياتي السابقة في مصر. ثم تارة أخرى أشعر بأن ما حدث كان حقيقياً وحدث بالفعل.

مرَّ الأسبوع سريعاً، وجاءت عطلة نهايته، ودون أن أدري، وجدت نفسي متجهاً إلى الحديقة نفسها مرة أخرى، محدثاً نفسي:

• "سأقطع الشك باليقين هذه المرة!"

وصلتُ إلى الحديقة ووقفتُ أمام الشجرة مبتسماً، أنظر إليها بتحدٍ ممزوج بالفضول، ثم قلتُ لنفسي:

"حسنًا، ها أنت هنا مرة أخرى، قد وصلت ووجدت الشجرة الحكيمة التي حدثتني كما هي. هل اطمأن قلبك أن عقلك بخير وأنها كانت مجرد ضربة شمس؟" ونظرتُ إلى الشجرة وقلتُ لها بسخرية: هل ستتحدثين مجددًا؟

ثم هممتُ بالانصراف، ولكنني سمعتُ ضحكة كبيرة، رنّت أصدأؤها في أرجاء المكان، وتبعها الصوت نفسه:

• "كنت متأكدة أنك ستعود."

رددتُ متلعثمًا:

- "أنتِ مرة أخرى؟"
- "نعم، أنا. ماذا تتوقع من شجرة صمدت ٣٠٠ عامًا في نفس المكان ولم تتحرك؟ هل كنتُ سأجمع حقايبى وأهاجر مثلًا في هذا الأسبوع الذي مضى منذ تكلمنا؟"
- "لا يا سيدتي، ولكني لا أستطيع استيعاب ما يحدث."
- "اعلم ذلك جيدًا.. واعلم أنك تحاول إقناع نفسك أن حديثي معك كان مجرد هلاوس من ضربة الشمس، والآن كما ترى ها هو الجو غائم، والحرارة معتدلة، وأنت بخير. وحان الوقت لتتأكد من أنني حقيقة، لأني صبرتُ عليك كثيرًا، والوقت يمر سريعًا، وعلينا أن نتحدث بجدية لتتفق."
- "تتفق! مَنْ يتفق مع مَنْ؟"
- "نحن، أنا وأنت."
- "يا للروعة! وتتفق على ماذا إن شاء الله؟"
- "مرة أخرى سأعيد الكلام: نريد التوصل إلى اتفاق بيننا وبينكم."
- "وكيف يكون ذلك؟"
- "سأوضح لك مرة أخرى الأمر، لكن ركز جيدًا حتى لا أشك في مستوى ذكائك يا باسم. نحن نقوم بواجبنا كاملاً تجاه البشرية منذ ملايين السنين، ننقي لكم الهواء ونمدكم بالأوكسجين، ونخلصكم من الكثير من ثاني أكسيد الكربون. البخار

المتصاعد منا يساعد في تكوين السحب وهطول الأمطار. ونوفر لكم الظل فيلطف حرارة الجو، فتجلسون وتتحدثون، بل وتنشأ قصص بينكم عن الحب الرومانسي، ويلعب أطفالكم في ظلنا الوارف، بل ويتسلق هؤلاء الأطفال جذوعنا ليمرحوا وتنمو عضلاتهم قوية. نمدكم بثمارنا من الفواكه المتنوعة والمكسرات، حتى المشروبات؛ فالقهوة اللذيذة التي لا غنى لكم عنها حين تستيقظون صباحًا هي من ثمارنا، والشوكولاتة الرائعة التي تأكلونها وتصنعون منها الحلويات والمشروبات هي من أشجار الكاكاو."

• "طيب يا سيدتي، كثر خيركم."  
• "ليس هذا فقط، بل وفرنا للكوكب التوازن البيئي المطلوب للعديد من الطيور والحيوانات وحبوب اللقاح، ولدي الكثير والكثير لأقوله. فماذا فعلتم أنتم أيها البشر لنا؟"  
أطرقتُ في خجل وقلتُ:

• "لا شيء، لقد أكلنا ثماركم واستمتعنا بكم، ولكننا ذبحناكم لنصنع خشب بيوتنا وقضينا على الكثير من غاباتكم الرائعة لنبني كتلاً خرسانية صماء. بل من المخجل أنه حتى المحبون الذين تحدثت عنهم كثيرًا ما يجرحونكم بحفر حروف من أسمائهم عليكم، والأطفال يكسرون غصونكم. تعلمين يا سيدتي الشجرة، أنتِ محقة. أنتم أعطيتمونا درسًا في الكرم والعطاء، وأنتِ شجرة حكيمة، ولكن ماذا بيدي أنا أن أفعل؟"

- "تساعدنا يا باسم. ألا ترى أنه آن الأوان ليتوقف البشر عن هذا الهراء؟"
- "يا ست الشجرة"
- "يمكنك أن تتاديني ب(شوشو). فنحن أصدقاء الآن."
- قلتُ في نفسي: "إنه الجنون بعينه.. أقولها يا شوشو."
- ولكني تداركت نفسي ووجهت كلامي لها:
- "أنا أعرف قدركم وقيمتكم، وأعلم أننا بدونكم لن يكون لدينا غذاء أو ماء أو حتى هواء. وأنتِ بنفسك قرأتِ التقرير الذي يقول كم أنا محب للأشجار والطبيعة، ولكن ماذا بيدي لأفعل أكثر مما أفعل؟"
- "يجب أن تنقل رسالتنا لإخوتك في البشرية."
- "كيف؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟"
- "ستبلغ رسالتنا للبشر كلهم، أي للكوكب كله."
- "لا والله، هل حضرتك متصورة أن البشر هؤلاء ١٠٠ أم ٢٠٠ إنسان؟ يا سيدتي، نحن اقتربنا من ٨ مليار إنسان على هذا الكوكب."
- "يا سلام، هل هذا صعب؟ وما فائدة التكنولوجيا التي اخترعتموها إذا كنتم لا تستطيعون التواصل بسهولة مع بعضكم البعض؟"
- "يا ست شجرة هانم"

- "قلتُ لك، قول لي شوشو. شجرة هذه صفة لي وليست اسمًا. هل تحب أن أناديك بـ(يا رجل) بدلًا من اسمك باسم؟"
- خجلتُ من نفسي وقلتُ لها: "أعتذر، لم أقصد الإهانة."
- قالت: "حصل خير. أنا اسمي الحقيقي (شموخ)، ولأنه اسم رصين، لذلك يدللوني بـ(شوشو)."
- "يا شوشو هانم، أنا لست المؤثرين على وسائل التواصل الاجتماعي. أقصد لست من (الإنفلوينسرز) (Influencers)، وقدرتي لن تتعدى التواصل مع المئات من البشر. هناك غيري من يصل متابعيه إلى الآلاف، وبعضهم إلى الملايين. ولكن من الصعب جدًا التواصل مع الكوكب كله."
- "هذه مسؤوليتك أنت وليست مسؤوليتنا. ابحث عن طريقة ما لتحدث بها مع الجميع. أنا انتهت مسؤوليتي، لقد بلغت الرسالة."
- "أي رسالة؟ أنا لم أبلغ بأي شيء بعد"
- آه صحيح، هذه هي الرسالة التي نريد منك توصيلها:  
**"إلى ساكني كوكب الأرض،  
بعد التحية،  
تلك هي رسالتنا الأولى لكم منذ الأزل، ومصحوبة بكل المودة والإعزاز.  
لقد قمنا بكل واجباتنا تجاهكم منذ ملايين السنين، وحافظنا على هذا الكوكب العظيم لتعيشوا فيه بأمان ورخاء. ولكنكم**

للأسف لم تحافظوا على تلك الأمانة التي وهبها لكم الخالق. لقد دمرتم الطبيعة بأفعالكم وذبحتم أخواتنا الأشجار في كل مكان. وليس هذا فحسب، بل اخترعتم الكيماويات التي لوثت الشوارع والأنهار والمحيطات، واستخدمتم أسلحة نووية وذرية في صراعاتكم التي لا تنتهي، ولوثتم الهواء بمخلفات مصانعكم وعادم سياراتكم من الوقود الأحفوري وغيره. حتى غلاف الأوزون لم يسلم من أذى التلوث الناتج عن منتجاتكم ومصانعكم، وهو ما أدى إلى ثقب الأوزون.

ونحن الآن نستشعر الخطر على حياة هذا الكوكب، خاصة بعد تزايد معدلات الكوارث الطبيعية في العديد من البلدان، وتغير المناخ، وتزايد موجات الحرارة المرتفعة، مما قد يؤدي إلى ذوبان الجليد في القطبين ويغرق العديد من البلدان بالفيضانات الناتجة عن ذلك.

وبالرغم من هذه المخاطر، فإنكم وللأسف غير منبهين لما يحدث، بل ومشغولون بالصراعات والخلافات والسياسات. لذا قررنا نحن هيئة الأشجار المتحدة القيام بتلك المبادرة نحو حماية وإنقاذ هذا الكوكب الذي نعيش عليه معًا. وتشمل تلك المبادرة ما يلي:

اختيار شخص يكون همزة الوصل والتواصل بيننا وبينكم، وقد تم بالفعل اختيار (باسم محمد محمود) المصري الجنسية والمقيم حاليًا في أستراليا لهذه المهمة.

سنقوم بالتواصل معكم من خلال هذا الشخص لتحذيركم مما قد يحدث وعواقبه على الكوكب، وسنطلب منكم من خلاله اتخاذ إجراءات فورية صارمة للحفاظ على الكوكب.

سيتم إعطاؤكم مهلة شهر واحد لتنفيذ تلك الإجراءات، وإذا لم يتم البدء في تنفيذ طلباتنا، سنبدأ نحن في الامتناع عن أداء البعض من مهامنا تدريجيًا، وسيزداد عدد هذه المهام كلما تأخرت استجابتكم لمطالبنا، حتى نصل إلى مرحلة إضراب شامل على الكوكب لإلزامكم بالجدية والتنفيذ في هذا الشأن.

وقد أعذر من أنذر،

والسلام ختام."

• "وأنا المفروض مني تبليغ هذا الكلام المتخلف للبشرية كلها؟"

• "ماذا قلت؟ كلام متخلف؟"

• "يا ست شوشو، أنا آسف، ولكن لن يصدقني أحد، سيتصورون

أني أصبت بلوثة عقلية أو أنني صرت مجنونًا."

• "يجب عليك إقناعهم، ألا تعلم ما قاله إريك فروم؟"

• "من هو إريك فروم؟"

• "يبدو أنك جاهل! هذا عالم نفس وفيلسوف اجتماعي ألماني-

أمريكي شهير."

• "ولماذا الإهانة؟ وماذا قال سعادته يا هانم؟"

• قال: "يبدو أنّ غالبية الناس ليسوا إلا أطفالًا غير واعين تمامًا،

يمكن التأثير عليهم إلى حدّ كبير؛ وهم مستعدّون للتخلي عن

إرادتهم والاستسلام لمن يكلمهم بلهجة ناعمة، أو على العكس، بلهجة قاسية بهدف استمالتهم."

• "لم أعلم هذا الكلام ولا قائله يا ست الشجرة الحكيمة، وأحب أن أبلغ سعادتك وهيئتكم الموقرة أنكم أسأتم الاختيار. أنا لست رئيس دولة ولا فنانونًا شهيرًا ولا رجل أعمال من أصحاب المليارات كي أقوم بهذه المهمة. أنا مجرد طالب علم مبتعث يدرس في الغربة وحيدًا. أنا إنسان عادي جدًّا، وكما نقول في مصر (أمشي جنب الحائط)، فكيف أقوم بهذه المهمة المستحيلة؟"

• "هل تتصور أننا لم نفكر في ذلك؟ نحن نعلم كل ذلك، ولكننا نثق في قوتك وذكائك."

• "ولكنني أنا نفسي ليست لدي هذه الثقة في نفسي."  
• "كيف يمكن للبذرة أن تصدق أن هناك شجرة ضخمة مخبأة داخلها؟ ما تبحث عنه موجود بداخلك. هذه مقولة من شمس التبريزي، تذكرها جيدًا من الآن وسوف تجد بنفسك الطريقة المثلى لتوصل رسالتنا للبشرية، وهذا يعتمد على يقينك بقدراتك وذكائك أولًا، وإخلاصك لهذا الكوكب ثانيًا."

• "ما هذه المصيبة! ألا يكفي ما أنا فيه من جنون؟ شجرة تتكلم، وكلامها مطعم بحكم الفلاسفة والأدباء!"

• "والآن، المقابلة انتهت. انصرف ولا تأتِ إلا ومعك أخبار جديدة."

## ٤- رحلة الهروب من التفكير

يومان وأنا في حجرتي لا أغادر سريري، ما بين النوم واليقظة، لا أدري ماذا أفعل وكيف أبدأ؟

هل يمكن أن يصدقني أي مخلوق؟ مؤكد أنني جننت... هذا كلام غير معقول.

أنا لازم أشغل عقلي بشيء مفيد بدلاً من التفكير في الهلاوس والخزعبلات التي أتخيلها.

قررت أن أشغل نفسي تمامًا عن التفكير في هذا الموضوع. فتحت موقع أنشطة الجامعة وقررت الانضمام إلى أكبر عدد ممكن من الأنشطة المتاحة هذا الأسبوع. اخترت الانضمام إلى فريق الكورال رغم أن صوتي ليس جميلًا.

أنا أعتبر نفسي رياضيًا بفضل أمي التي حرصت منذ طفولتي على أن أكون نشيطًا. كنت أتدرب بانتظام في التنس، السباحة، وكرة اليد أثناء وجودي في مصر، وأخطط الآن لاستئناف الرياضة. وعليه، غدًا صباحًا، سأنتظم بالسباحة في مسبح الجامعة، وأختتم يومي بممارسة لعبة التنس.

بالإضافة إلى ذلك، لدي خطط أخرى: سأشاهد مباراة كرة القدم الأسترالية مع زميلي زانج في عطلة نهاية الأسبوع، وحجزت تذكرة للسينما يوم الجمعة مساءً برفقته هو وإيميلي.

زانج هو طالب ياباني يدرس هندسة الكمبيوتر بمنحة دراسية. هو شاب ذكي شديد الأدب والذوق كعادة اليابانيين، وشغوف

بالبرمجة وتطوير الألعاب. بالإضافة إلى ذلك، يعزف على الجيتار ببراءة، ويُمتعنا بموسيقاه في لقاءاتنا. طريقته الودية تجعل الجميع يشعرون بالراحة معه.

أما إيميلي، فهي فتاة لطيفة من أصل برازيلي، هاجرت أسرتها إلى أستراليا قبل ولادتها. هي مجتهدة للغاية، حصلت على منحة لدراسة الهندسة في الجامعة أيضًا، كما أنها متفوقة في السباحة التوقيعية وتستعد للانضمام إلى الأولمبياد. تتميز بروحها المرححة وحبها للحياة ولرقصة السامبا؛ لم أرها يومًا دون ابتسامة تضيء وجهها.

قررت الآن أن أشغل كل لحظة فراغ في حياتي، سواء بالرياضة، العمل، القراءة، أو الأنشطة الجامعية. لن أسمح لهذه الأفكار السلبية بتدمير مستقبلي. والآن، سأفتح كتابي وأغرق تمامًا في القراءة.

سأبدأ قراءة الكتاب الذي اشتريته مؤخرًا، ويحكي عن حياة ستيف جوبز، ذلك العبقري الذي كان له الفضل مع شريكه وزنيك في ظهور شركة أبل (Apple) إلى الوجود في سبعينيات القرن الماضي.

جلست في مقعدي المفضل وبجواري كوب من القهوة. بعد عدة ساعات من القراءة قلت لنفسي:

برغم أنني لم أجد هذا الكتاب شيقًا، كما أنني أكره الإطالة في الكتب؛ فهو حوالي ٦٠٠ صفحة، وكان من الممكن اختصاره في ١٠٠ صفحة... ولا أعلم من أين سأجد وقتًا لإكمالها؟

مما قرأت حتى الآن، وجدت بعض ما يستحق التفكير، ويمكنني تدوينه كي أنشغل تمامًا عن هذه الهلاوس التي تراودني. وبدأت أكتب:

بالنسبة لي، كانت تلك المرة الأولى التي أعرف فيها عن إنكار ستيف جوبز لابنته وعدم اعترافه بها إلا بعد أن أثبت القضاء نسبها باستخدام تحليل DNA. شعرت بدهشة أكبر حين قرأت عن ندمه لاحقًا على ما فعل، خاصة أنه نفسه كان ابنًا متبنى، إذ تولى عنه والداه البيولوجيان في ظروف معقدة؛ فوالده سوري ووالدته ذات جذور ألمانية. تبناه أبوين رائعين، بول وكلارا جوبز، ووقفوا إلى جواره طوال حياته.

أيضًا، اندهشت جدًّا من أسلوب حياته البوهيمي في شبابه، حيث كان يتناول حبوب الهلوسة وينغمس في الموسيقى والفلسفات المتعددة، إلى جانب أسفاره إلى الهند وإيران للتأمل والعمل والإقامة في المزارع. كيف تمكن، رغم هذه الحياة غير التقليدية، من تخصيص وقت كبير للعمل على الإلكترونيات؟ وكيف نجح في تأسيس شركته في أوائل العشرينيات من عمره؟!

ما لم أفهمه هو قبوله لكتابة كتاب سيرته الذاتية بهذا الأسلوب. فقد وافق على أن يكتب المؤلف كل الحقائق التي سمعها من أهله وأصدقائه وشركائه، رغم أن الكثير منها كان مخزيًا، والأفضل، في رأيي، دفنها بدلًا من توثيقها في كتاب يخلدها.

أثناء قراءتي، دق جرس وصول رسالة على هاتفي الآيفون. ولم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت لنفسي: كيف نجح صاحب

هذه الشخصية غير المنطقية، وأصبحت منتجات شركته موجودة في كل منزل أو شركة، مهما اشتدت المنافسة في زمننا الحالي؟! ربما كانت عبقريته الفذة هي السبب الرئيسي لنجاحه، لكن هل تكفي العبقرية وحدها لتحقيق كل هذا؟ أم أن آلة الدعاية والتسويق كانت العامل الأقوى؟ هل لعب الحظ دورًا كبيرًا؟ أم سأكتشف أسبابًا أخرى حين أكمل قراءة الكتاب (إن تمكنت!)؟ ولكن هل يمكن للدعاية والإعلام أن تحقق النجاح والوصول إلى الملايين؟ إذا كان هذا حقيقة، فهل يمكنني اتخاذ هذا الأسلوب لتوصيل الرسالة المطلوبة مني من الأشجار؟ انتبهت فجأة لغرابة أفكارى وقلت لنفسى:

ما هذا الخرف والجنون يا باسم؟ هل تصدق بالفعل أن هناك شجرة تحدثت معك؟ يجب أن تفيق من هذه الأوهام وتُرَكِّز في حياتك الواقعية ودراستك.

قررت النوم. دخلت إلى حجرتي واستحضرت وضعية النوم في سريري، ولكنني ظللت مستيقظًا، والأفكار والتساؤلات والمخاوف تلاحقني. فتحت مصحف القرآن الخاص بي وبدأت أقرأ فيه للحصول على بعض الهدوء والراحة واليقين. وبعد قليل، يبدو أنني استغرقت في النوم، لأنني لم أشعر بشيء حتى بدأ المنبه يرن كالمعتاد كل صباح.

## ٥. محاولة التطبيق الفعلي

حين استيقظت، تناولت فطوري بسرعة، ثم توجهت إلى الجامعة. بدأت يومي بالسباحة في المسبح لمدة نصف ساعة. اليوم لدي لقاء مع إحدى مشرفاتي، أليسون.

أليسون على درجة أستاذ مساعد، ولديها أبحاث متعددة في مجالات متنوعة تتعلق بالحفاظ على البيئة والتنمية المستدامة. من بين مشاريعها البحثية، تركيزها على تشجيع الممارسات التي تقلل انبعاث الغازات الدفيئة. أليسون وُلدت في أستراليا، لكن والديها قدما من رومانيا. كان لقاؤي معها في الكافيه القريب من مكتبها.

هذا النوع من اللقاءات كان من أكثر الأمور التي أدهشتني عندما وصلت إلى أستراليا، حيث تُبنى العلاقة بين المشرفين والطلاب على الاحترام المتبادل، وتكون أقرب إلى الصداقة الودودة منها إلى العلاقة الرسمية. وغالبًا ما يجتمع المشرف مع الطالب في أحد الكافيهات بال الحرم الجامعي لتناول القهوة أو الطعام أثناء النقاش. بالإضافة إلى ذلك، لا يتم استخدام الألقاب الرسمية، بل ينادي الجميع بعضهم البعض بأسمائهم مجردة. على سبيل المثال، أناديها "أليسون" دون لقب "دكتورة"، وكذلك مشرفي الرئيسي، "إدوارد"، الذي أناديه باسمه رغم أنه بروفيسور.

هذا الوضع مختلف تمامًا عما اعتدنا عليه في بلداننا، حيث تُعد الألقاب جزءًا مهمًا من تقاليد الحرم الجامعي.

أحضرت معي اللاب توب وعرضت عليها ما أنجزته من العمل. أبدت رأيها وشجعتني، لكنها أكدت على أهمية أن أتبع رأيي الشخصي، لأنه في النهاية هذا هو بحث الدكتوراه الخاص بي، ومع مرور الوقت سأصبح أكثر خبرة من مشرفي في هذا المجال.

بعد انتهاء اللقاء، عدت إلى مكتبي الصغير، وهو في غرفة أشارك فيها مع طالب آخر أوشك على إنهاء الدكتوراه ولا يأتي إلى المكتب كثيرًا. انشغلت بأبحاثي طوال اليوم، ثم عدت إلى منزلي مساءً.

حضرت لنفسي وجبة سريعة من الجوزليمي التركي مع السلطات. معظم المأكولات هنا متوفرة في السوبر ماركت، وقد تم طهيها جزئيًا أو كليًا، لذا لا يتطلب الأمر سوى تسخينها في الفرن أو الميكروويف للحصول على وجبة ساخنة ولذيذة. حاولت مرارًا أن أشرح ذلك لأمي لأطمئنها، لكنها دائمًا تشعر بالأسى لأنني لا أستطيع طهي أطباق مثل المحشي أو الملوخية مثلًا.

بعد العشاء عدت لقراءة الكتاب المكتوب عن قصة حياة ستيف جوبز. لفت انتباهي أنه لا يقتصر على سرد حياته فقط، بل يتناول أيضًا الكثير من الأحداث المهمة لتلك الحقبة الزمنية على المستويين الإنساني والعالمي. تطرق الكتاب إلى ظهور حركات الهيبي وفلسفة الزن والمذاهب الروحانية المتعددة التي انتشرت في أمريكا وأوروبا، مستندة في مرجعيتها إلى الشرق الأقصى. وذكر كيف كان تأثير هذه الثقافات واسعًا لدرجة أن العديد من الشباب تخلى عن الدراسة الجامعية وقتها بحثًا عن تجارب روحانية أعمق.

الأغرب كان انتشار عقاقير الهلوسة، والحميات الغذائية المتطرفة، والانغماس في طقوس الموسيقى والمجون والتأمل، والتطرف في العودة إلى الطبيعة.

وهنا توقفت عن الكتابة، ووجدت نفسي أردد:

"التطرف في العودة إلى الطبيعة... هل ما يحدث لي هو نوع من التطرف في العودة إلى الطبيعة؟ ولماذا يحدث لي أنا تحديدًا؟" ولكنني أفقت وقلت: لماذا أفكر بهذه الطريقة السلبية فيما أقرأ؟ ولم لا أكون إيجابيًا وأستفيد من هذه المعلومات الجيدة؟ في هذا الكتاب مثلًا، تحدث عن انتشار التأمل ورواجه بين الشباب، وأعتقد أن هذا شيء قد يفيدني.

لقد تذكرت الآن أننا نُصِحنا بممارسة التأمل واليوجا من قبل المدربين الذين أعطونا البرنامج العام التمهيدي عند التحاق بالجامعة. أتذكر كيف ركزوا بشدة على التأثير غير المستحب للوحدة والعمل على شاشات الكمبيوتر فترات طويلة لإنجاز مهامنا، وقالوا لنا إنه من الضروري جدًّا مراعاة جانب الترفيه وصحتنا النفسية. وكانت اليوجا والتأمل من الطرق المقترحة كعامل يقلل من التوتر والقلق النفسي أمام الضغوط. أعتقد أنني في قمة التوتر والضغط النفسي حاليًّا، وبالتالي أنا في حاجة ماسة لهما الآن. إذن، فلأكن إيجابيًا وأرّ ماذا يمكنني أن أفعل لممارسة اليوجا والتأمل.

## ٦. اليوجا والتأمل وحصتي الأولى

فتحت موقع الجامعة للأنشطة الطلابية، وبدأت أستعرض الأنشطة المتاحة. ها هي حصص لليوجا تُعقد كل يوم اثنين وأربعاء الساعة الخامسة مساءً، بعد انتهاء يوم العمل مباشرة. كل المطلوب مني كطالب دفع مبلغ زهيد كرسوم للاشتراك أون لاين، والذهاب مصطحبًا معي حصيرة اليوجا (Yoga Mat) الخاصة بي.

اشتركت وكتبت بياناتي. وصلني إيميل يرحب بي على الفور ويخبرني بالمكان، وهو لحسن الحظ في قاعة تقع على بعد عدة أمتار من مكتبي. وبما أن غدًا الاثنين، فإن خير البر عاجله، سأذهب إلى المول القريب وأشتري حصيرة اليوجا لأبدأ أولى جلساتي معهم غدًا.

في الموعد المحدد

دخلت قاعة اليوجا لأول مرة وأنا أشعر بمزيج من الفضول والتوتر. كانت القاعة مضاءة بإضاءة خافتة تضيء عليها جوارًا من السكينة، والجدران مزينة بصور تعكس الطبيعة وعبارات تحفيزية باللغة الإنجليزية.

في الداخل، كانت هناك مجموعة من الطلبة والطالبات، حوالي عشرة أشخاص، يجلسون على حصائر ملونة موزعة بعناية.

في مقدمة القاعة وقفت المدربة كارين، امرأة شقراء ذات حضور هادئ، تبدو في أواخر الثلاثينات أو أول الأربعينيات. وانددهشت بعض الشيء حين لاحظت أن قوامها كان أميل إلى الامتلاء، وهو ما لا يتناسب مع كونها مدربة يوجا.

ابتسمت كارين برقة ورحبت بنا بصوت دافئ:

"مرحبًا بالجميع! سعيدون بوجودكم اليوم."

أخذت مكانًا لي قريبًا من الطرف، محاولًا تجنب لفت الانتباه. وافترشت حصيرتي الخضراء التي اشتريتها صباحًا. اكتشفت أنني لم أكن الوحيد الجديد هنا، حيث أشارت كارين إلى أن ثلاثة منا يشاركون في حصة اليوجا لأول مرة. أكملت بابتسامة:

"لا تقلقوا، سنأخذ الأمور بسهولة اليوم."

ثم علمتنا تحية اليوجيين، التي تبدأ بكلمة "ناماستي" (Namaste). وشرحت أنها في اللغة السنسكريتية تعني أن "النور

الداخلي بداخلي ينحني للنور الداخلي في داخلك."

وأوضحت أن هذه التحية تُعتبر دعاءً وطريقة للتعبير عن الشكر، ويتم أداء "ناماستي" عن طريق ضم اليدين معًا أمام الصدر والانحناء برفق.

بدأت الحصة بتمارين الاسترخاء، حيث طلبت منا الاستلقاء وإغلاق أعيننا، والتركيز على أنفاسنا. كان صوتها هادئًا كنسيم يمر بين الأشجار، مما جعل التوتر يتلاشى تدريجيًا. بعدها، انتقلنا إلى

تمارين التمدد، وشرحت لنا أن هذه التمارين تهدف إلى إعداد الجسم والعقل لليوجا.

في منتصف الحصة قالت كارين بابتسامة مطمئنة:  
"لن أضغط عليكم اليوم، خاصة أن لدينا بعض المشاركين الجدد."  
لمست في صوتها تفهمًا وتشجيعًا، أو هكذا تصورت لأطمئن نفسي. ثم علّمتنا كلمة "أوم"، وشرحت أنها تعبر عن صوت الكون. يُقال إنها تربطنا بطاقة الطبيعة وتنقلنا إلى حالة من السلام الداخلي.

كان هناك شيء غريب لكنه جميل في ترديدها مع الآخرين، كأننا ننسجم مع لحن كوني خفي.

في نهاية الحصة، قالت كارين:  
"أود أن أشجعكم على الانضمام إلى رحلتنا نهاية هذا الأسبوع. ستكون تجربة شاملة تتضمن جلسات يوجا وتأمل، بالإضافة إلى كيرتان."

سمعت الكلمة الأخيرة "كيرتان" ولم أفهمها، كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة كتلك. ترى، ماذا تعني؟ لم أجرؤ على السؤال، ولكنني قررت البحث عنها على جوجل بمجرد مغادرة المكان.

كان الغموض يثير الفضول بداخلي، وأخذت أفكر إن كانت الرحلة ستكون تجربة ممتعة أم لا. عمومًا، لن أنكر أنني أشعر بنوع من الاسترخاء اللذيذ الذي لم أشعر به من قبل.

## ٧. من يستحق الثقة؟

خرجت للمشي في الحديقة العامة القريبة من شقتي. أحب كثيرًا الذهاب إلى هذه الحدائق للقراءة، أو المشي، أو التحدث مع أمي التي أشتاق إليها كثيرًا وأعلم كم هي تفتقدني أيضًا. ما ينغص على إحساسي بالراحة كان السؤال الذي يلح على ذهني:

هل يمكن أن أكون مريضًا نفسيًا؟

حاولت الهروب من هذا السؤال والانشغال عنه بأفكار أخرى، وتذكرت مصر والحياة بها، والتي لا يمكن أن أنكر افتقادي لها. فهي، كما تقول الأغنية، "فيها حاجة حلوة".

أخذت أندندن بالأغنية، مستحضراً موسيقى الرائع عمر خيرت في عقلي. ثم بدأت أمارس هوايتي في تحليل ما أراه أمامي من مشاهد عابرة وأحاول الربط بينها أو مقارنتها بما رأيته وشاهدته في حياتي السابقة. لعلي اكتسبت هذه الهواية من عملي في مجال البحث العلمي؛ فالباحث يجب أن يفكر بطريقة عميقة فيما يراه من ظواهر.

بدأت في ممارسة هوايتي، فكان أول مشهد وقع عليه نظري هو لأم شابة تساعد طفلها على تسلق الحبال في أحد الألعاب الموجودة بالحديقة. فقلت لنفسي:

معظم هذه الحقائق تحتوي على ألعاب بسيطة يستطيع الأطفال الصغار اللعب بها لتقوية أجسادهم في الهواء الطلق، بعيدًا عن شاشات الهواتف المحمولة وأجهزة الكمبيوتر. وفي أحيان أخرى، تجد أجهزة تشبه أجهزة الجيم مخصصة لمساعدة البالغين على التريض، وكل هذا مجانًا. الحق أنني أعتبر هذه الحقائق من النقاط الإيجابية جدًا في أستراليا وكل بلدان العالم المتقدم. ولكن أكثر ما يعجبني في أستراليا عن غيرها هو إمكانية البهجة والسعادة حتى لذوي الدخول المنخفضة؛ إذ يمكنهم الاستمتاع بالحدائق مع أطفالهم والشواطئ الجميلة المتاحة للجميع. ومثال آخر على المساواة، إلى حد كبير، أنك قد تجد العامل الذي انتهى من واجبه في تنظيف المكاتب أو دورات المياه يجلس بزيه الرسمي أثناء وقت الاستراحة في نفس الكافيه أو المطعم الذي يجلس فيه مديره. أرى هذا المشهد كثيرًا داخل الجامعة؛ ففي وقت الغداء، يمكن أن تجد في نفس المكان الطلاب يجلسون على طاولات بمفردهم أو مع أحد أساتذتهم، كما تجد بعض الأساتذة وربما العميد أو رئيس الجامعة على طاولات أخرى، إلى جانب بعض عمال النظافة أو الأمن أو غيرهم على طاولات أخرى، دون أي فروق. الكل سواسية؛ الجميع يطلب ما يشاء وفقًا لقدرته المادية ويتناول طعامه في أجواء من البساطة والمساواة. وبرغم محاولتي الانشغال بكل هذه الأفكار عن المساواة وأستراليا والطبيعة، عاودني السؤال مرة أخرى:

هل يمكن أن أكون مريضًا نفسيًا؟  
وأجبت على نفسي: لا أعتقد ذلك، فأنا لا أشعر بتوتر أو اكتئاب،  
ولا تأتيني هلاوس سمعية أو بصرية... باستثناء هذا الموضوع  
الغريب. لو كنت مريضًا نفسيًا حقًا، لرأيت تلك الشجرة في منزلي  
أو في غرفتي، لكني لا أراها أو أتحدث معها إلا عندما أذهب إلى  
هناك. وهنا خطرت ببالي فكرة: ربما عليّ البحث عن شخص أثق  
به وأحكي له كل ما حدث. شخص يمكنه مساعدتي دون أن يحكم  
عليّ أو يسخر مني.

ولكن، من يكون هذا الشخص؟ من يمكنه أن يستمع لي ويتفهم  
هذا الحديث الغريب؟  
آه، وجدتها... إنها يمى.

يمى طالبة دكتوراه مصرية مبتعثة إلى نفس الجامعة التي أدرس  
فيها. تدرس علم النفس، وهي ليست مجرد فتاة ذكية ومجتهدة،  
بل تتميز بوعي عميق وقدرة على فهم الآخرين. يمى تحلم بفتح  
مركز دعم نفسي متميز لمساعدة أطفال التوحد في مصر بعد  
حصولها على الدكتوراه.

تعرفت عليها من خلال أنشطة الجامعة، وكان للتشابه بين  
خلفياتنا دور كبير في تقوية صداقتنا. ومع مرور الشهور، أصبحنا  
قريبين جدًا. أثق بها كثيرًا وأحترم طريقة تفكيرها وتحليلها للأمور.  
حتى أنني عرفت على لورا، الفتاة الأسترالية التي كنت مرتبطًا بها  
لفترة قصيرة. وقتها، كنت أتوهم أنني أحبها، لكن علاقتنا لم تصمد

كثيرًا للأسف. نشبت بيننا خلافات عديدة أدت إلى انفصالنا، ولم أعد أعلم عنها شيئًا.

لكنني أتذكر أنني كنت في حيرة من أمري حينها، وأتساءل: لمَ حدث هذا بيننا؟ وأتذكر أنني استشرت يمني؛ لأنني كنت بحاجة إلى تفسير منطقي لما حدث. الحق أنها لم تخذلني حينها. استمعت لي بعناية، وحللت الموقف بطريقة واقعية ومنطقية. أوضحت لي أن سبب الخلافات بيني وبين لورا كان في اختلاف الثقافات؛ إذ كنت أنا أفكر بالطريقة الشرقية التي تربيت عليها، بينما لورا كانت تتصرف بعفوية وفقًا لثقافتها الغربية. وأكدت لي يمني أنه كان يجب أن نجتهد في مزج ثقافتنا أو تبني أحدنا لثقافة الآخر، ولكننا لم ننجح في ذلك، وعليه ظلت الخلافات قائمة بيني وبين لورا.

تحليل يمني كان صائبًا ومليئًا بالوعي. كما أنه ساعدني على تجاوز أزمة انفصالي العاطفي عن لورا بعد ما انجذبت لها في البدايات. لهذا السبب، أعتقد الآن أن يمني هي الشخص المناسب الذي يمكنني الوثوق به للحديث عن هذا الأمر الغريب.

قابلت يمني في حديقة الجامعة وشرحت لها كل ما حدث معي بالتفصيل. استمعت لي بهدوء، ثم ابتسمت ولخصت رأيها ببساطة:

"ليس من الضروري أن تكون لديك هلاوس سمعية أو بصرية بالصورة التي تتخيلها كي تكون مريضًا نفسيًا. ربما كثرة انشغالك بمشاكل البيئة وهموم كوكبنا المريض حاليًا أثرت على عقلك

اللاواعي، وتجسدت لك في صورة هذا السيناريو الذي شاهدته،  
فيما يشبه أحلام اليقظة مع تلك الشجرة."

قلت: ولم مع تلك الشجرة بالذات؟

قالت: ربما الأجواء هناك ومنظرها المهيّب وعمرها المتقدم، كل  
هذه الأشياء أضافت نوعًا من الغموض والعظمة عليها في عقلك  
وجعلتك تستحضر عقب الماضي والتاريخ في لحظة لقائك بها.  
ثم نصحتني يمني بقراءة كتب تعمق لدي الوعي بالذات وإدارة  
المشاعر.

قلت لها: تعلمين أنني لا أحب برامج التنمية البشرية وهذا الكلام.  
فقلت: لا، ليس كذلك إطلاقًا. سأرسل لك أبحاثًا علمية يمكنك  
الاطلاع عليها وسأرسل لك بودكاست لباحثين وأساتذة جامعة في  
هذا المجال.

- قلت لها: طيب، على الأقل أعطيني فكرة مبسطة، ماذا  
تقصدين بهذا الوعي بالذات؟
- ردت يمني: واضح من اسمه يا باسم، هو يعني "افهم  
نفسك وذاتك".

ضحكت من قلبي وقلت بسخرية:

- وهل ترين أنني لا أفهم نفسي وأحتاج إلى التعرف عليها؟
- قالت: لا تأخذ الموضوع بحساسية. الكثير منا لا يفهم  
نفسه جيدًا ولا يعلم نقاط قوته وضعفه. باختصار، حين  
تقرأ ستعلم أن هناك ثلاثة مستويات للوعي:

- إنسان لا يعرف نفسه ولا يعرف ما يريد.
  - إنسان يعرف ما يريد، ولكن لا يعرف كيف يحققه.
  - إنسان يعرف ما يريد، ويعرف كيف يحققه.
- وختمت كلامها بقولها: "اقرأ يا باسم ولن تندم ولن تخسر شيئاً."  
هزرت رأسي موافقاً، والواقع أنني فعلت ذلك مجاملة ليمنى، ولم أكن مقتنعاً بما قالتها ولا متحمساً للقراءة عن هذا الموضوع. فأنا رجل لا أقتنع سوى بالعلم التطبيقي والشواهد العلمية المبنية على تجارب محسوسة، أما التفكير في علم النفس وفهم الذات ومثل هذه الأمور فلا تستهويني ولا تقنعني. غاية ما في الأمر أنني مشوش ووحيد وأشعر أنني كالغريق حالياً، الذي يبحث عن أي قشة عليها تكون طوق النجاة.

## ٨- الطريق إلى السكون

استيقظت في الخامسة صباحًا. أخذت دشًا سريعًا، واصلت، وتناولت فطورًا سريعًا، وأخذت حقيبتني معي وتوجهت إلى نقطة التجمع التي تم إبلاغنا بها لتتحرك منها السيارات بنظام (Carpooling). كانت الكلمة جديدة عليّ، وفهمت أنها تعني أن نجتمع معًا في سيارات قليلة توفيرًا للمجهود والنقود والوقود. ذهبنا إلى منطقة طبيعية جميلة جدًا، وبها استراحة كبيرة تخص (نيك)، أحد منظمي الرحلة، والذي أخبرنا أن والديه كانا من الهيبيز وأقاما في تجمع خاص بهم، ولم يرسلاه إلى المدرسة، لكنه حصل على تعليمه في المنزل. وقال لنا بفخر شديد إنه يمارس اليوجا بانتظام منذ عشرين عامًا، وأنه تأثر بها بطريقة إيجابية في حياته وعلاقاته وعمله.

حاولت فهم الفرق بين الهيبيز واليوجيين، فشرح لي (نيك) الفرق، قائلاً إن الهيبيز كانوا حركة شبابية ظهرت في الستينيات في الغرب، يشتهرون بالتمرد على القواعد التقليدية للمجتمع واتباع أسلوب حياة بسيط يعتمد على السلام، الحب، والطبيعة. بينما اليوجيين هم ممارسو اليوجا، الذين يركزون على تحقيق التوازن بين العقل والجسد من خلال التأمل والتمارين الجسدية والتنفس العميق، وهي ممارسة ذات أصول هندية قديمة. هناك تقاطع بين الاثنين،

حيث إن كثيرًا من الهيبيز اعتنقوا فلسفة اليوجا كجزء من أسلوب حياتهم.

بدأنا يومنا بممارسة اليوجا في الهواء الطلق حيث كانت الشمس ساطعة، ثم قمنا بجلسة من الاسترخاء والتأمل، وهو ما منحني شعورًا بالهدوء والصفاء.

طوال اليوم، تناولنا وجبات خفيفة نباتية، وهو ما أعجبنى كثيرًا، بالإضافة إلى أنواع شاي عشبية مختلفة. لكن، للأسف، لم يكن هناك أي قهوة أو مشروبات تحتوي على كافيين؛ لأن اليوجيين يفضلون الابتعاد عن هذه المشروبات، وهو ما لم يعجبني بالطبع. بدأت الأمطار تهطل، وهذا أحد أسباب معاناتي هنا في أستراليا... تقلبات الجو سريعة جدًا؛ يمكن أن تكون السماء صافية والشمس ساطعة صباحًا، ثم خلال ساعات قليلة ينقلب الجو تمامًا إلى غيوم ورياح أو مطر غزير وأحيانًا أعاصير. حين وصلت هنا، نصحني الزملاء الذين جاءوا إلى أستراليا قبلي بضرورة متابعة تطورات الطقس بصورة متكررة خلال اليوم من خلال الموبايل أو سماع نشرات الأخبار، ولكني لم أعتد على ذلك في مصر. ولذلك أنخدع كثيرًا حين أرى الشمس ساطعة وأخرج من منزلي دون شمسية، وما هي إلا ساعات ويحدث السيناريو المؤلم، وأصير في حالة يُرث لها. فسر لي أحدهم ما يحدث بأن أستراليا جزيرة تحاصرها مياه المحيطات من كل مكان، وحرارة الشمس تُسبب تبخر المياه السطحية من المحيطات المحيطة. هذا البخار يتصاعد إلى طبقات

الجو العليا، حيث يبرد ويتكثف ليشكل السحب. عندما تصبح السحب مشبعة بالرطوبة، يؤدي ذلك إلى هطول الأمطار. نعود لما حدث في هذا اليوم: لقد ازداد هطول المطر، مما اضطررنا إلى الاحتماء بالمظلات، ومع ذلك قمنا باستكشاف المنطقة بقدر الإمكان. النباتات والزهور بألوانها المتنوعة وأحجامها المختلفة حتى مع المطر المستمر.

مع اقتراب المساء، بدأ منظمو الرحلة في تعليق الزينة والأنوار التي جلبوها معهم. تلا ذلك فقرة الكيرتان (Kirtan). تذكرت أنني كنت أود البحث عن هذه الكلمة، حاولت، ولكن للأسف كنا في منطقة منعزلة ولم يكن هناك شبكة تغطيها جيدًا. ما شاهدته كان أن هذا الكيرتان نوع من الغناء الجماعي. يغني أحدهم مقطعةً، ثم نردد معه أو بعده. كانت الكلمات بالنسبة لي غريبة، مثل:

جوبالا جوفيندا راما مادانا موهانا.

هاري كريشنا هاري كريشنا، هاري راما هاري راما. أخبرونا أن هذه المانترا (mantras) عبارة عن اهتزازات صوتية روحانية تتمتع بقدرات روحية لا حصر لها. تُساعد على تحرير العقل والقلب من الضغوط، تنقية الوعي، وجلب رؤى عميقة، شعور بالسلام الداخلي، وسعادة حقيقية.

ما لفت انتباهي أنهم اندمجوا في هذا الكيرتان ليس فقط بالغناء والتمايل كما كانت البدايات، ولكن بالرقص الذي وصل إلى درجات

هستيرية لدى البعض منهم. شيئًا ما جعلني غير مستريح لهذه الطقوس، ولكني لم أفهم لماذا.

اختلفنا اليوم بعشاء لذيذ، لكن مع ازدياد سوء الأحوال الجوية لم تتمكن من معرفة التحذيرات بسهولة لصعوبة التواصل، ولكن أحدنا استطاع التقاط أحد تحذيرات هيئة الأرصاد على موبايله بشأن سيول وفيضانات محتملة.

بدأ القلق يتسلل إلى نفسي، لكن زملائي، الأكثر اعتيادًا على مثل هذه الظروف، طمأنوني قائلين: "هذا طبيعي هنا في أستراليا. لا تقلق." رغم كلماتهم المطمئنة، ظل القلق يسيطر عليّ، وقررت اقتراح البقاء في الاستراحة حتى الصباح.

لكنهم أصروا على العودة: "لا تقلق، القيادة بحذر كافية لتحقيق الأمان." استمروا في تناول الحلويات والغناء الجماعي تحت الأمطار الغزيرة، وكأن الوضع طبيعي تمامًا.

ولكني كنت أكثرهم قلقًا وتوترًا، وأخذت ألح عليهم بضرورة العودة لمدينتنا كما اقترحت أن نسير جميعًا في قافلة، بحيث نكون قريبين من بعضنا في حال واجهت إحدى السيارات مشكلة. وافقوا على الفكرة، وبدأنا العودة. وبينما كانت الأمطار تعزف سيمفونية على زجاج السيارات، توقفت القافلة فجأة.

اتضح أن إحدى السيارات غرقت في بركة مياه. قضينا ساعة كاملة نحاول إنقاذ السيارة وسائقها. ومع تفاقم الأحوال الجوية، أصبح من المستحيل العودة إلى الاستراحة، كما كان من الصعب

الوصول إلى منازلنا. اضطررنا للتوقف في محطة وقود قريبة، والبقاء في السيارات حتى تهدأ الظروف. مرت ثلاث ساعات طويلة ونحن في حالة من الترقب والقلق. سمعت كثيرًا من زملائي يقولون: "لم يكن صحيحًا أننا تعطلنا. باسم كان محقًا" ثم كرروا عبارة تقول: "عندما تغمر المياه الطريق، انس الأمر".

"When flooded, forget it".

وعلمت منهم أنها عبارة شهيرة في أستراليا تذكر الناس بتوخي الحذر والتفكير في أمانهم وقت هطول الأمطار الغزيرة، لسهولة حدوث فيضانات.

قالوا هذه العبارة بندم وحسرة، وبدا أنهم تعلموا الدرس بالطريقة الصعبة.

أخيرًا وصلنا خبر بفتح طريق يمكننا من خلاله العودة إلى المدينة. تحركنا ببطء شديد وحذر. ومع بزوغ الفجر، وصلت أخيرًا إلى المنزل، مرهقًا تمامًا، لكن ممتنًا لأنني وصلت سالمًا.

## ٩- الفشل والإحباط

مرّ أسبوع، وبدأت أشعر بالاطمئنان إلى أن صحتي بخير؛ فلم أواجه أي تهيؤات أو أحاديث غريبة طوال الأيام الماضية. لكن، ومن باب التأكد الكامل، قررت الذهاب إلى الشجرة لاختبر نفسي وأتأكد أن كل ما حدث لم يكن سوى أوهام أو إرهاق.

وبمجرد وصولي إلى هناك، سمعت الشجرة تخاطبني:

• "ما الذي جاء بك؟"

شعرت بإحباط شديد. ها هي الشجرة تتحدث من جديد، بعد كل محاولاتي خلال الأسبوع الماضي لنسيانها ومحو تلك الحوارات من ذهني.

لكنها لم تتوقف عند ذلك، بل أكملت كلامها قائلة:

• "قلت لك ألا تأتي إلا إذا كانت لديك أخبار جديدة"

• "أنا لدي أخبار جديدة"

• "كاذب! أنت حاولت الانشغال بكل الطرق الممكنة ولم تأخذ أي

خطوة إيجابية سوى أنك تحدثت مع يمنى ولم تصدقك."

• "نعم، وهذه هي الأخبار الجديدة."

• "هل تستغفني؟"

• "لا والله، أنتِ قلتِ لي أخبرك بأخبار جديدة ولم تحددني أنها يجب

أن تكون إيجابية."

• "وهل هذا يحتاج تحديداً؟ أظنها مفهومة بالعقل يا ناصح... أخبار جديدة مقصود بها أخبار إيجابية. تفضل الآن يا باسم ولا ترني وجهك إلا بعد أن تحقق انتصاراً ملموساً في مهمتك. لاحظ أنك أضعت حتى الآن خمسة أيام من مهلتك."

• "يا سيدتي، أنا قلت لك أني لا أصلح لهذه المهمة ولم تصدقيني، ولكنك صممتِ على رأيك أنتِ والهيئة. والآن أنا فشلت، هل أنتِ سعيدة؟ أنا فاشل يا ست شوشو. دعيني في شأني وابحثي عن شخص آخر يصلح لها."

• "هكذا بكل بساطة تقبل بالهزيمة والفشل؟"

• "وماذا تفهمين أنتِ عن الفشل، أيتها الشجرة القابعة في مكانها طوال حياتها؟"

• "يا باسم، لديكم فيلسوف اسمه جون لوك قال يوماً: لا توجد شجرة لم يهزها ريح، ولا يوجد إنسان لم يهزه فشل، لكن توجد أشجار صلبة ويوجد أشخاص أقوياء. فكن منهم."  
• "ما شاء الله على الحكمة! إنك تبهريني دوماً."

• "طبعاً، هل لديك شك في حكمة شجرة بهذا العمر؟"

• "طيب يا شجرة يا حكيمة، ما المطلوب مني تحديداً؟"

• "فقط توصيل الرسالة. والآن انتهت المقابلة."

عدت إلى حجرتي وأخذت أفكر حتى كاد عقلي ينفجر.  
مر أسبوع آخر وأنا جالس في غرفتي لا أعلم ماذا أفعل. وقلت  
لنفسي:

"سأخلص نفسي بنفسي. سأقوم بشراء منشار ضخم وسأذهب إلى تلك الشجرة وسأذبحها لأنهي حياتها المديدة الطويلة وأستريح من هذه الهلاوس. نعم، سأقتلها وسأقطعها بالمنشار، ثم سأستأجر سيارة لتحمل القطع الخشبية إلى مصانع الأثاث ليتم بعثرتها في حجرات نوم وكراسي ومناضد تتوزع عبر الولايات كلها، ولن تقوم لها قائمة بعد ذلك."

انتبهت لنفسي وقلت: هذه تصرفات يعاقب عليها القانون هنا، بل إن هذا كلام مجانيين. أنا فعلاً أوشكت على الجنون.

تذكرت في هذه اللحظة الدواء المهدئ الذي كتبه لي الطبيب من قبل لأتخلص من التوتر الذي يصيبني عند ركوب الطائرات. حيث نصحني الطبيب حينها بأخذ حبة أو اثنتين على الأكثر قبل ركوب الطائرة بساعة.

بحثت بسرعة عن الدواء ووجدت العلبة بعد عناء. فتحتها وأخذت حبة وأغلقتها، ثم عدت وقلت: لا، لن تكفي حبة واحدة. سأتناول اثنتين. أريد أن أهدأ تمامًا وأنام بعمق. وسأذهب غدًا مع مجموعة اليوجا في رحلتهم التي اشتركت بها. سأحاول نسيان كل هذا الجنون الذي أعيشه حاليًا.

استيقظت صباح اليوم التالي ونظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة صباحًا.

ووجدت في المحمول عشرة مكالمات فائتة اتصلت بي وأنا نائم لا أشعر ولا أرد. وأخيرًا انتبهت وأسرعت لأرد، لأجد أمي منهارة. لقد ظنت أن مكروهاً قد حدث لي لأنني لم أرد على اتصالاتها منذ يومين.

• "آسف يا أمي، أنا بخير، اطمئني."

• "الحمد لله أنك بخير، ولكن لم لا ترد؟ حرام عليك، لقد كدت أموت خوفًا وقلقًا عليك. أشعر أن قلبي كان على وشك التوقف."

• "آسف، لم أقصد إزعاجك."

• "إذن لم لم ترد؟"

• "مرهق."

• "وهذا الإرهاق وصل لدرجة عدم قدرتك على ضغط زر صغير في المحمول لنسمع صوتك؟ هذا ليس كلامًا منطقيًا. صارحني، هل أنت مريض؟ وأقسم بالله لي أنك ستقول لي الحقيقة."

• "يا أمي..."

• "اقسم وإلا لن أكلمك مرة أخرى."

• "أقسم بالله أني سأقول الحقيقة."

• "والآن أخبرني ماذا حدث؟"

• "هناك موضوع غريب حدث لي."

• "ما هو؟"

• "هناك شجرة كبيرة هنا ذهبت لمشاهدتها وهناك..."

• "أكمل... هناك ماذا حدث؟ هل تعرضت للسرقة أو تعاركت مع

أحد الموجودين؟"

- "لا، لا، لم يحدث هذا."
- "إذن ماذا حدث؟"
- "أخشى ألا تصدقيني."
- "لَمْ لَن أَصَدَقْ؟ أَنَا طَوَّلَ عَمْرِي أَتَقُّ بِكَ مِنْذُ كُنْتَ طِفْلاً صَغِيرًا."
- "لأنه موضوع لا يُصدق."
- "يا ابني أتعبتني، قل لي ماذا حدث دون لف ودوران. قلبي يشعر أنك تخفي شيئاً وتخشى مصارحتي به. قل ولا تخف."
- "لقد تحدثت معي شجرة."
- "ماذا تقول؟"
- "هذا ما كنت أخشاه، أنتِ لا تصدقيني."
- "سلام قول من رب رحيم... اهدأ يا ولدي وافتح الفيديو. يجب أن أراك صوتاً وصورة لأفهم ماذا حل بك."

وبعد ساعة من الحوار، قالت أمي:

- "لو أنني سمعت هذا الكلام في أي جريدة أو برنامج تليفزيوني لقلت هذا خداع وفبركة إعلامية. ولكنك ابن عمري الذي أعلمه جيداً، وأستشعر صدقك بقلبي لا بعقلي. أنا أصدقك يا ابني، ويجب عليك أن تؤدي مهمتك وتوصل رسالتك للبشر"
- "أحقاً يا أمي تصدقيني؟ وهذا رأيك؟"
- "وهل عمري خدعتك أو خذلتك؟"
- "لا أقصد، ولكن لا أحد قد يصدقني."

- "ولو العالم كله كذبك، أنا سأصدقك لأني أمك. شيء آخر يا حبيبي، أنت تعلم أنني أحب النباتات والزهور. وكان لدي دومًا إحساس بأن النباتات تشعر برعايتي لها، وأن انشغلت عنها ذبلت. فكنت أشعر بأنها كائنات لها مشاعر وتحدثنا بطريقة صامتة. ربما ما حدث منك هو صورة أخرى لذلك."
- "إذا كان رأيك كذلك، هيا نفكر معًا كيف سأنقل رسالتي."
- "لا، هناك خطوة أخرى يجب أن تفعلها أولًا."
- "ما هي؟"
- "يجب أن تحجز موعدك مع الطبيب العام أولًا، ثم مع طبيب نفسي ثانيًا، لنستثني أية احتمالات مرضية في الموضوع. فلن نكتفي برأي الطالبة صديقتك تلك، فربما ليست لديها الخبرة الكافية للحكم على موضوع كهذا."
- "فكرة جيدة، سأفعل كما تقولين."
- شعرت بالكثير من الراحة بعد مكالمتي مع أمي وإخبارها بما يحدث لي.
- ولكن للأسف، حدث لي مثلما يحدث كل مرة أتحدث فيها مع أمي وتتطرق إلى مواضيع هامة في حياة كلينا. كلما سألت نفسي:
- "هل ظلمتها حين سافرت وتركتها؟"
- هل كان يجب أن أبقى إلى جوارها في مصر بعد كل ما فعلته من أجلي؟

ما يهون عليّ هو أن خططي المستقبلية لا تخلو من وجود أمي فيها. كما أن ما يخفف من إحساسي بالذنب أنها كانت على علم برغبتني في استكمال دراستي بالخارج، بل هي من شجعتني سرًا بعد حصولي على الماجستير في مصر أن أتقدم لكل المنح المتاحة في مجالي، وقالت لي:

"إن دراستك بالخارج سوف تفتح لك آفاقًا أوسع في مستقبلك المهني، كما أن شخصيتك سوف تنضج كثيرًا، وستكتسب العديد من المهارات والخبرات من تجربة الحياة بالخارج والعيش مستقلًا عن أسرتك".

كان تشجيعها هذا دون علم أبي، الذي بالتالي لم يكن يعلم شيئًا عن خطتنا. وكيف له أن يعلم، والحوار بيننا شديد الاختصار والندرة؟

ولكن يجب أن أكون صادقًا مع نفسي وأعترف بأن إحساسي بالذنب ليس فقط لأنني تركتها، وإنما لأنني أخفيت عليها سرًا خطيرًا كان يجب أن أخبرها به. والآن، بعد أن رأيت كم هي تثق بي وتصدقني في كل ما أقول، حتى لو كان موضوعًا لا يُصدق مثل موضوع الشجرة، أشعر بالخجل من نفسي وبأني لا أستحق ثقتها تلك وتضحياتها من أجلي.

## ١٠- رحلتي مع الوعي بالذات

حجزت موعدًا مع طبيبي ووجدت أقرب موعد متاح بعد ثلاثة أيام. قررت الاستمرار في الانشغال بالدراسة واليوغا والسباحة ولقاءات الأصدقاء.

لكن كلمات يمنى عن الوعي بالذات كانت تلح على ذهني أن أُعطي نفسي فرصة لأقرأ عن هذا الموضوع.

قلت لنفسي: لقد اهتمت يمنى بالموضوع وأرسلت لي بعض الأبحاث والمصادر بالبريد الإلكتروني في اليوم التالي لمناقشتنا. أليس من الذوق أن أقرأ حتى بعضًا منها، على الأقل لأجد ما أقوله لها إن قابلتني لاحقًا وسألتني عن رأيي في هذا الموضوع؟

كان اليوم الأحد، فجلست في حجرتي وبدأت أقرأ، ولم أشعر بالوقت إلا حين طرق باب حجرتي فهيم، يستأذني في استخدام زجاجة الزيت الخاصة بي في مطبخنا المشترك، لأنه نسي شراء واحدة ولم يكتشف ذلك إلا وهو يقوم بتحضير وجبة العشاء لنفسه الآن. وأضاف:

"أنا مرهق من العمل، وليس لديّ رغبة في الخروج من المنزل ثانية، كما أن الجو ممطر وعلى وشك هبوب عاصفة".

قلت له: "طبعًا، بكل سرور، استخدمها، وليس هناك داعٍ لذكر كل هذه التفاصيل".

شكرني وعاد إلى المطبخ ليُكمل طهي وجبة العشاء لنفسه.

فهيم شاب مهذب وامتدين من باكستان، يدرس الماجستير في مجال السياحة، ويعمل أيضًا في أحد مطاعم البييتزا لتحسين دخله. وهو يسكن معي في الشقة لتتقاسم الإيجار. لا توجد بيننا تعاملات كثيرة، فهو إما في الجامعة أو في المطعم معظم الأوقات. بعد أن رددت عليه، تعجبت كيف مر الوقت بهذه السرعة ولم أشعر! لقد بدأت القراءة الساعة الحادية عشرة صباحًا، وها هو يعد وجبة العشاء الساعة السادسة مساءً. كما أنه يقول إن الجو ممطر، ولكني لم أشعر بذلك؛ لقد انهمكت في القراءة. إنه موضوع أعمق وأجمل مما تخيلت.

قررت تدوين أهم ما فهمته من تلك القراءة المستفيضة. وشمل هذا التدوين المعلومات التي عرفتتها عما يسمى نافذة چوهاري للوعي بالذات (Johari Window)، وهي عبارة عن نموذج نفسي تم تطويره عام ١٩٥٥ من قبل جوزيف لوفت وهاري إنغرام (ولهذا سُمي "جو-هاري"). يُستخدم هذا النموذج لزيادة الوعي بالذات عن طريق فهم تفكيرنا الواعي واللاواعي.

هذه النافذة عبارة عن مربع المعرفة عن الذات، وهو مقسم إلى أربعة أقسام بناءً على نوعية المعلومات المتوفرة لكل من الشخص والآخريين، وبالتالي يحتوي على أربع مربعات:

▪ **مربع المنطقة المفتوحة (Open Area):** يمثل المعلومات التي يعرفها الشخص عن نفسه ويعرفها الآخرون أيضًا، كالاسم، الوظيفة، أو الهواية التي يتحدث عنها علنًا.

▪ **المنطقة العمياء (Blind Area):** تمثل ما يلاحظه الآخرون عن الشخص، ولكنه لا يلاحظه مثل تفاهة حديثه أو تكبره وتعاليه على الآخرين. ويمكن التعرف عليها من خلال طلب التغذية الراجعة من الأشخاص الموثوق بهم كالأصدقاء المخلصين.

▪ **المنطقة المخفية (Hidden Area):** تمثل المعلومات التي يعرفها الشخص عن نفسه، ولكنه يخفيها عن الآخرين. مثل مشاعره الحقيقية تجاه موضوع معين أو أحلامه الشخصية التي لا يبوح بها لأحد. ويمكن تقليل هذه المنطقة من خلال الانفتاح التدريجي والثقة في الآخرين.

▪ **المنطقة المجهولة (Unknown Area):** تمثل الجوانب التي لا يعرفها الشخص عن نفسه ولا يعرفها الآخرون أيضًا، مثل مهارات أو قدرات مخفية تظهر فقط في ظروف معينة، أو مشاعر مكبوتة. تُكتشف هذه المنطقة عادة من خلال تجارب جديدة أو استبطان عميق.

كم أعجبتني فكرة هذه النافذة وأعطتني إيحاء بأنها نافذة حقيقية يمكنني أن أطل من خلالها على أعماقي وأفهم ذاتي. لقد كانت يمنى محقة حين شجعتني على القراءة في هذا المجال.

## ١١ - اللحظة الراهنة

بعد ثلاثة أيام جاء موعد زيارة طبيبي، وكانت لديّ آمال عريضة أنه قد يساعدني في تفسير ما يحدث معي بطريقة علمية. جلست أمامه، وبدأت أتحدث بصوت هادئ عن الشجرة التي تتحدث إليّ كلما اقتربت منها، وكيف تنصحي وتحاورني وكأنها صديق قديم. لاحظت نظرة مشككة في عينيه، لكنه حاول أن يحتفظ بملامح الاحترافية في تعامله، رغم أنني شعرت بعدم تصديقه لقصتي. اقترح عليّ الراحة، ووصف لي بعض الأدوية المهدئة للأعصاب، كما نصحتني بمراجعة أخصائي في الأمراض النفسية، وكتب خطاب التحويل لهذا الأخصائي، مؤكِّدًا على ضرورة الحجز بأسرع موعد متاح لديه.

عدت إلى شقتي وجلست في حجرتي مهمومًا. وكنت قد حجزت الموعد مع الأخصائي، لكن جلستي مع طبيبي أثقلت عقلي بمزيد من التساؤلات. جلست دون رغبة في عمل أي شيء، ثم استلقيت على سريري، أحملق في سقف الغرفة محاولًا الهروب من ضوضاء أفكارِي. خطرت ببالي فكرة ممارسة بعض التأمل الذي تعلمته مؤخرًا كوسيلة لتهدئة روعي المرهقة.

أغمضت عيني ببطء، وبدأت في توجيه تركيزي إلى أصابع قدمي. حاولت أن أستشعر كل إصبع على حدة، بدءًا بالإبهام ثم الإصبع الصغير. كان الشعور غريبًا في البداية، لكنني أجبرت نفسي على

المضي قدمًا. ارتفع انتباهي تدريجيًا إلى قدمي بالكامل، ثم إلى ساقي، كأنني أحاول استكشاف جسدي وكأنني أخوض رحلة داخلية.

بينما حاولت التركيز على اللحظة الراهنة، أو كما قالت لنا كارين، إنه من الضروري "التصالح مع اللحظة"، إلا أن الأفكار بدأت تقفز إلى ذهني بلا توقف. تذكرت حديث الطبيب معي صباحًا، ثم تسللت كلمات الشجرة أيضًا، كأنها تطرح أسئلة أكثر مما تقدم إجابات. وجدت نفسي أفكر في أبحاث الدكتوراه، وكيف أنني لم أتمكن بعد من إنهاء بعض النقاط التي أرهقتني لأيام.

شعرت بالإحباط؛ كلما حاولت الإمساك بلحظتي الراهنة، انزلقت إلى الماضي أو قفزت إلى المستقبل. بعد دقائق بدت كأنها ساعات، استسلمت لليأس من التركيز. فتحت عيني وجلست على حافة السرير. قررت أن أفعل أي شيء آخر يكسر هذه الحلقة المفرغة من التفكير.

وهنا تذكرت موضوع الوعي بالذات وكيف أنه قد يكون مفتاحًا لفهم أعمق لنفسي. قلت لنفسي: "سأجرب شيئًا مختلفًا. سأقيّم نفسي في كل مربع من مربعات چوهاري. سألعب لعبة صغيرة مع نفسي".

أحضرت ورقة وقلماً، وبدأت أرسم المربعات الأربعة. ثم نظرت إلى المربع الأول المعروف للجميع أو المنطقة المفتوحة، وقلت لنفسي: هي بالفعل معروفة للجميع، بدليل أن هيئة الشجر

المذكورة أشارت إلى أغلب هذه المعلومات في التقرير المكتوب عني.

وهنا انتفضت وقلت لنفسي:

"هل جننت يا باسم؟ أنت الآن تتكلم بكل جدية عن هيئة الشجر وكأنك صدقت كل هذا الموضوع".

تركت الورقة على المكتب الصغير الموجود بحجرتي ولم أكمل باقي المربعات، وقررت مشاهدة أي فيلم على الكمبيوتر كي أنشغل عن هذا الجنون الذي يلاحقني.

## ١٢. سيناريو الإحباط يتكرر

يجب أن أفكر في شخص آخر يصدقني ويقف إلى جوارِي. وهنا ظهرت في مخيلتي البروفيسور إدوارد، المشرف على رسالتي للدكتوراه. وهو عالم جليل أفنى حياته في العلم والأبحاث من أجل البيئة والطبيعة. لعله يقف إلى جوارِي.

سأرسل له رسالة عبر البريد الإلكتروني وأطلب منه موعدًا عاجلاً لبحث موضوع بالغ الخطورة والأهمية.

إدوارد عمره اقترب من السبعين. هو إنسان هادئ الطباع، يتميز بالذكاء والحكمة والتواضع. ولد في هولندا، ثم هاجرت أسرته إلى أستراليا وهو في السابعة من عمره. تفوق في دراسته وحصل على منحة للدراسة بالجامعة، وتدرج بالترقيات في عدة جامعات أسترالية ودولية حتى صار أستاذًا في جامعتي واستقر بها منذ عشرين عامًا. حصل على عدة منح وجوائز في مجال الحفاظ على البيئة.

بعد يومين:

جلست أمامه في أحد الكافيهات بالحرم الجامعي وحكيت له حكايتي مع الشجرة وهيئة الشجر المتحدة كاملة.

هزَّ إدوارد رأسه متعجبًا، ثم قال:

"اسمع يا باسم، نصيحتي لك أن تحجز موعدًا عاجلاً مع طبيب نفسي متخصص، ولا تنزعج كثيرًا؛ فالمشاكل النفسية صارت منتشرة بشكل كبير جدًا بين كل الأعمار، خاصة الشباب، بسبب ضغوط الحياة العصرية، وأيضًا بسبب ما نعاينه في العالم من

كوارث وتغير بالمناخ وصراعات وانعدام العدالة والمساواة. أنت إنسان حساس محب للبيئة، ومؤكّد تأثرت بهذه العوامل. كما أن العمل الأكاديمي الشاق وما يتبعه من جلوس ساعات أمام شاشات الكمبيوتر وحيدًا من أجل العمل له عبء ثقيل على النفس، وكثيرًا ما يؤثر بالسلب على الحالة النفسية. وأخيرًا، منذ اليوم الأول الذي قابلتك فيه توسمت فيك الذكاء والعبقرية، ولكن هناك خيط رفيع يا باسم بين الجنون والعبقرية، وأنا أرجو ألا تكون قد قطعت هذا الخيط".

قلت له: "أنا بالفعل حجزت موعدًا مع أحد الأطباء النفسيين كما نصحني طبيبي".

رد بابتسامة هادئة:

"عظيم... اعتبر نفسك في إجازة لمدة أسبوعين، ويمكن أن نجعلها شهرًا. وخلال هذه الإجازة مطلوب منك الاسترخاء والاستجمام والعناية بنفسك، وأيضًا مقابلة الطبيب النفسي كما اتفقنا. أتمنى أن تعود بعدها في أفضل حال".

ها هو سيناريو الإحباط يتكرر. خرجت محببًا بعدما فشلت في إقناع إدوارد. هكذا دارت الأفكار في ذهني، ثم قلت لنفسي: "أنا كان يجب أن أتوقع أنه لن يصدقني أحد في هذا الجنون الذي أخبرهم به. ولكن لا أدري لماذا كان لدي بعض الأمل في تلك المقابلة. حتى الآن لم يصدقني إلا أمي، وأرجو أن يكون كلامها معي حقيقيًا، وليس من باب التهوين علي ودعمني في كل ما أقول، كما هي عاداتها".

### ١٣. القلق البيئي والإجباطات

في الموعد المحدد، ذهبت للقاء الطبيب النفسي، وعرضت عليه تفاصيل تجربتي. لم يصدق الرواية أيضًا، لكنه قرر إجراء الفحوصات اللازمة للتأكد من سلامة قدراتي العقلية. بعد فحص دقيق وتحليل شامل، أكد لي أنني في كامل قواي العقلية، ولا أعاني من أي اضطرابات ذهنية أو هلوسات. لكن رغم هذا التطمين، لم يتمكن من تفسير حديثي عن الشجرة المتكلمة.

ابتسم الطبيب النفسي بهدوء وقال لي:

"سأروي لك قصة قد تجد فيها بعض السكينة. أنت لست وحدك من يثقل قلبه بما يحدث في هذا العالم.

في مدينة هادئة، عاش شاب يُدعى روني. كانت مدينته، مثل كثير من المدن الأخرى، تسعى لإنقاذ الطبيعة من عبء الإنسان عبر مبادرات الاستدامة والحفاظ على البيئة وتقليل انبعاثات الغازات الدفيئة. وجد روني في هذه المبادرات دعوة ملحة للتغيير، فبدأ يغيّر تفاصيل حياته تدريجيًا: تخلى عن البلاستيك، وخفف من استهلاكه من أي شيء قد يضر البيئة، وتفرغ للدعوة إلى سياسات صديقة للبيئة.

لكن مع الوقت، بدأ يشعر أن جهوده ليست كافية، وكأن كل خطوة، مهما كانت صائبة، لا تروي ظمأ الأرض للنجاة.

كبر هذا الشعور داخله، وصار يُعاقب نفسه على أبسط الأمور، مثل قيادة السيارة أو إضاءة الغرفة لفترة أطول. مع الوقت، انعزل عن أصدقائه، وكأنه لا يريد أن يرى انعكاس ضعفه في أعينهم. سعى للكمال المستحيل في مسعاه لإنقاذ الكوكب، حتى ثقلت عليه الحياة واستبدت به الوحدة. لم يكن روني وحيداً في هذا الطريق المتعب. الكثير من سكان المدينة كانوا يعانون من القلق ذاته، ظاهرة أصبحت تُعرف بـ"القلق البيئي". نصح المختصون هؤلاء بجلسات يوجا وتأمل أعادت لهم السكينة وأحيت فيهم القوة، أريدك أن تفهم من هذه القصة أن الحفاظ على البيئة ليس عبئاً فردياً، بل هو رحلة جماعية، وأن العناية بالكوكب تتطلب أيضاً عناية بأنفسنا".

الآن أستطيع أن أقول إنني خرجت من تجربة الاستشارة من الطبيبين وأنا في حالة من عدم الشعور بأي شيء. هي حالة من اللاضيق واللاسعادة. لقد نفى تشخيصهم فكرة الجنون أو المرض النفسي الذي قد يؤدي إلى تخیلات بصرية أو سمعية، وهذا شيء جيد، ولكنه لم ينفِ احتمالية إصابتي بالقلق البيئي أو التوتر. شعرت أنهم لم يأخذوا روايتي على محمل الجد، ولم أجد تفسيراً حاسماً لما أعيشه.

أنا غير مقتنع بهذا التشخيص. صحيح أنني صرت أكثر حرصاً في تعاملتي مع المياه والطاقة، وصحيح أنني صرت مهووماً بمشاكل تغير المناخ وأثرها على كوكبنا ومستقبلنا، ولكن حرصي وهمومي

وقلقي لا يمكن أن يؤدوا بي إلى تخيل أشياء غير موجودة أو واقعية  
كما حدث معي.

وبعد تفكير عميق، اتخذت قراري وقلت لنفسني: لن أفعل شيئاً  
لتلك الشجرة الملعونة. أي تصرف يمكنه أن يضيع سمعتي،  
سيعتبرني الجميع مجنوناً، وربما فقدت منحة الدكتوراه وضاع  
مستقبلي للأبد. ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ هم مجرد أشجار، لا شيء  
بيدهم. سأعيش حياتي ولن أذهب لتلك الشجرة الثانية. بقي  
أسبوع على المهلة، وقد قمت ببعض المحاولات وفشلت. ومن  
يدري، ربما كانت تلك مجرد تهيؤات أو هلاوس، وربما هو ذلك  
القلق البيئي الذي حكى لي عنه الطبيب.

## ١٤ - الغربة... هل هي لعنة؟

جاءني إشعار على هاتفي المحمول بأن هناك مشكلة في بياناتي بالبنك. حاولت حلها من خلال الدردشة عبر الإنترنت ولم أفلح. اتصلت بخدمة العملاء، ولكن الموظفة كانت تتحدث بسرعة عالية جدًا، ففاتني الكثير مما قالته من الخطوات. لذا قررت الذهاب إلى البنك بنفسي، وهذه خطوة نادرًا ما تحدث هنا. ولكن التعامل وجهًا لوجه يجعل حياتي أسهل.

برغم كل الدروس التي حصلت عليها في مصر حتى ارتفع مستواي وحصلت على الدرجات التي تؤهني للالتحاق ببرنامج الدكتوراه، إلا أنني ما زلت أعاني أحيانًا في فهم اللهجة الأسترالية هنا. لا أتعرض لهذه المشكلة في الجامعة، فمعظمنا مغتربون، وحتى أساتذتنا الكثير منهم مغتربون أو ذو أصول غير أسترالية. فمنهم من إنجلترا، التي تعتبر المصدر الأول للمهاجرين، أو من الهند التي ارتفعت نسبتها بشكل ملحوظ لتصبح ثاني أكثر الدول الممثلة في أستراليا. كما يوجد من الصين والفلبين، وحتى العربية تُستخدم في بعض المنازل هنا من قبل مئات الآلاف.

مشكلتي تكون مع الصغار في السن أو ممن ينتمون للفئة العاملة. أحيانًا يتحدثون بكلمات عامية لا أعرفها، وباختصارات محبة لهم. هذه التعبيرات، رغم بساطتها بالنسبة لهم، قد تخلق لدي أحيانًا شعورًا بالارتباك. أجد نفسي أحتاج إلى وقت لتفسير

سياق الحديث أو حتى التوقف للبحث عن معاني هذه الكلمات  
لأتمكن من التواصل معهم بسلاسة.

ذهبت إلى البنك وجلست في انتظار دوري بالصالة المخصصة  
لذلك. جلس بجواري رجل يبدو في نهايات الخمسينيات من العمر،  
ولديه ملامح أوروبية. حياني وتحدث عن الجو الممطر اليوم  
واحتمالية حدوث فيضانات، وسألني السؤال الشهير:  
من أين أنت؟

حين قلت له إني من مصر، ابتسم وأخبرني أنه ذهب من قبل إلى  
مصر في رحلة قصيرة شملت عدة بلدان بالمنطقة.  
الغريب أنه سألني بعد ذلك:

كيف هو إحساسك هنا؟ هل أنت سعيد أم تشعر بالغرابة؟  
تعجبت من المصادفة، إذ كانت أفكارها كلها منذ تلقيت المكالمة  
تدور حول السؤال نفسه.  
قلت له:

الحق أن أستراليا بلد رائع وشديد الجمال، ولكن إحساس الغربة  
ليس سهلاً. أنا أفتقد مصر وعاداتنا وثقافاتنا. كما أن التعامل مع  
ثقافات متعددة يحتاج إلى مهارات لم أعتد عليها في حياتي  
المنغلقة في مصر، حيث لم أتعامل سوى مع مصريين، وفي أحيان  
قليلة بعض الإخوة العرب. ولكني أرى أن أستراليا تمثل لوحة  
فسيفسائية من الثقافات، التي تتطلب مني التكيف والمرونة  
للتفاعل مع كل هذا التنوع الثقافي والحضاري.

هز رأسه موافقًا بشدة وقال:

هذا الشعور لن يفارقك مهما طالت إقامتك هنا أو تأقلمت مع الحياة. أنا من النرويج، وقد أتيت إلى هنا قبل خمسة وثلاثين عامًا. كنت في العشرينيات من عمري وانبهرت بجمال أستراليا ودفء جوها المشمس الذي نفتقده في النرويج، حيث البرودة الشديدة والغيوم التي لا تنقشع. قررت البقاء، ونجحت في عملي، وحصلت على الجنسية. لكن، ما زلت أفتقد وطني بشدة. والأغرب من ذلك، أنني عندما أزور النرويج أشعر بالحنين إلى أستراليا وأرغب في العودة إليها. إنها، كما أسميها، لعنة الغربة. المغترب يبقى دائمًا عالقًا بين حنينه لوطنه الأم وشوقه لوطنه الثاني.

ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وأردف:

نحن، المغتربين، كأننا نعيش في حالة دائمة من الحنين المتبادل. قطع حديثنا صوت الموظفة تناديني، فذهبت إليها. واتضح أنها مشكلة صغيرة جدًا كان يمكن حلها بالموبايل لو أنني فهمت ما قالته تلك السيدة تليفونيًا.

تم حل المشكلة في دقائق قليلة، وحين هممت بالخروج، لمحت الرجل النرويجي جالسًا مع موظف آخر، فلم يكن لدي فرصة لتوديعه. ولكن كلماته أثرت بي بشدة حتى أنني ظللت أفكر بها طوال الطريق إلى الجامعة، وأتساءل:

هل هناك فعلاً ما أسماه هذا الرجل بلعنة الغربة؟

بعد انتهاء عملي اليوم، ذهبت إلى حصة اليوغا المعتادة، وكما هي العادة، كانت كارين المدربة مليئة بالطاقة والحماس. وقبل أن نبدأ التمارين، قالت لنا:

اليوم سأحدثكم قليلاً عن نشأة اليوجا.

ثم بدأت تقول إن اليوجا يُعتقد أنها نشأت في الهند قبل ظهور الحضارة الإنسانية الأولى، وإن اللورد شيفا يُعتبر أول من مارسها وعلمها للحكماء الذين نقلوا هذا العلم للبشرية. كانت كلماتها مثيرة للاهتمام، وأثارت بداخلي فضولاً حول هذه الجذور العميقة. بعد قليل، بدأنا التمارين كما نفعل عادة، وكنت مستمتعاً بالانسجام الجسدي والذهني حتى وصلنا إلى حركة تُدعى "وقفة أبو الهول" أو "Sphinx Pose". عندها وجدت نفسي أفكر: إذا كانت اليوجا بدأت قبل التاريخ، وقبل الفراعنة الذين هم أجدادي، فكيف أُطلق على هذه الحركة اسم أبو الهول، وهو رمز فرعوني خالص من عدة آلاف سنة فقط؟

تعمّقتُ في التفكير أثناء أدائنا للحركات، حتى جاءت حركة أخرى قالت عنها كارين:

دعونا ندير رؤوسنا وأعناقنا وصدورنا بحركة الدوائر الصوفية (Sufi Circles).

وهنا زادت حيرتي؛ فالصوفية نشأت في الإسلام، وهي بعيدة كل البعد عن جذور اليوجا القديمة في الهند. كيف إذًا أُطلق اسم كهذا على إحدى حركات اليوجا؟

غاصت أفكارى فى تلك التساؤلات، وبدأت أفقد تركيزى. لاحظت كارين ذلك ونبهتنى قائلة: "هل أنت معنا؟ يبدو أنك تفكر فى شىء بعيد!" ابتسمت بخجل وعدت للتمرين. قلت فى نفسى: "هذه مشكلة عقلى كباحت؛ لا أستطيع إلا أن أحلل كل شىء، أفكر فى أصوله، وأحتاج دائماً إلى قناعة منطقية وحقيقة ملموسة لما أسمع." حاولت كبج جماح هذه الأفكار مؤقتاً لأكمل الحصاة بتركيز أكبر، على أمل أن أبحت عن إجابات لاحقاً.

## ١٥. الوعي وجبل جليد

قابلت يمنى صديقتي اليوم في الحرم الجامعي. جلسنا نتحدث قليلاً، أخبرتها بالتطورات العديدة التي حدثت في الأيام الماضية، ورأي الأطباء بخصوص حالتي. ثم سألتني إن كنت قرأت عن الوعي بالذات كما نصحتني، فقلت لها:

"نعم، قرأت، وأعجبتني فكرة مربع چوهاري، وسأبدأ قريباً في استخدامها كنوع من التقييم لِنفسي."

قالت يمنى:

"على فكرة، فهم أنفسنا أو الوعي بها أو الانتباه لها هذا شيء صعب. فهناك الوعي الخارجي، وهذا شيء بسيط كلنا نعلمه، مثل ما هو شكلنا، وماذا نحب، وماذا نرتدي. وهناك وعي أعمق بالمشاعر، ثم وعي أعمق بالمعتقدات، وأخيراً مرحلة وعينا بالدوافع. وهذا الوعي يحتاج منا بعض الجهد للوصول إليه، ولا يحدث بصورة تلقائية لأن الكثير من أفكارنا في اللاوعي. وبالتالي يمكننا أن نقول إن ذاتنا مثل جبل جليد؛ نرى فقط قمته وهي الجزء الأصغر، ولا نرى الجزء الأكبر منه."

وبينما نتحدث، جاءت رسالة من والدها، فتهلل وجهها وفرحت بها. استأذنتني في الانصراف لأنها اشتاقت إليه، ومادام الآن مستيقظاً وليس لديه عمل، فالיום الجمعة في مصر إجازة، وهذه فرصة جيدة لتكلمه مكالمة فيديو طويلة. فهي، حسب قولها، لا تمل أبداً من الحديث معه.

ودعت يمنى وبقيت في مكاني لم أتحرك. لقد نكأت جرحًا موجعًا في حياتي، ألا وهو علاقتي بأبي. أنا للأسف لا أذكر لأبي الكثير من المواقف الخاصة بيننا، رغم أنه لم يسافر للخارج مثل بعض آباء زملائي الذين كانوا يعملون بالسعودية أو الخليج ولا يأتون سوى في الإجازة الصيفية. ولا مثل والد علي، جاري الذي كان ضابطًا بالجيش ويتغيب فترات طويلة عن منزله. ولا مثل والد بسملة، زميلتي التي قالت لي إن والدها مهندس بترول يذهب لعمله أيامًا طويلة ثم يأتي لهم أسبوعًا أو أكثر.

كان أبي يعمل في نفس مدينتنا في القاهرة، ومع ذلك كنت أراه مرات قليلة وأتحدث معه مرات أقل. أنا لن أقول إنه كان يضربني أو يشتمني، لا، الحق يقال لم يفعل ذلك أبدًا. ولكن الحق يقال إنه لم يسعدني يومًا، ولا فعل شيئًا أتذكره معه. ذكرياتي معه باهتة، لا لون لها ولا رائحة.

لقد ورثت من أمي معظم الأشياء التي أحبها في نفسي: عيونها الواسعة العسلية، وبياض بشرتها، والكثير من ملامحها، كما ورثت عنها حبها للعلم وللحياة والنباتات والحيوانات الأليفة. أما هو فلم أرث منه سوى شعره المجعد ونفس نبرة صوته الرخيمة والمنخفضة، كما قال لي بعض الأقارب حين رددت عليهم في التليفون الأرضي وتصوروا أنني أبي لتشابه صوتي مع صوته. ويا ليته لم يورثني أيًا منهما.

كان والدي يسهر لوقت متأخر، ويصحو متأخرًا، ويذهب لعمله في محل الأقمشة الذي ورثه عن جدي، ولا يعود سوى متأخرًا بعد أن

أكون نمت في معظم الأيام. كنت لا أراه مساءً، ولكن حين كانت أمي توقظني صباحًا للاستعداد للمدرسة، كنت أجد آثاره واضحة من آنية الطعام الفارغة أمام التلفزيون، والسجائر العديدة المطفأة في الطفاية التي كانت نظيفة قبل أن أنام، ورائحة السجائر التي تكتم صدري وأكرهها. وفي أيام الجمعة كان يصحبني معه للصلاة، ولم يكن يدور بيننا أي حديث يمكنني تذكره. فلا أذكر أنه سألني عن أحوالي في المدرسة، أو بطولاتي في السباحة، أو حتى: "ماذا ترغب أن تفعل اليوم؟" ولا أي شيء. وكأني حقيبة يصحبها معه إلى المسجد ويعود بها إلى البيت. أقصى ما يمكنه قوله:

"لا تتحرك كثيرًا... لا تتحدث بصوت مرتفع، فنحن في الجامع... إياك أن تتعد عني لكي لا يخطفك اللصوص ويطلبون منا فدية لإعادتك."

ثم يكملها بمزحة سخيفة لا أفهم كيف كان يقولها حتى الآن، إذ كان يقول لي:

"لعلمك، لو هذا حدث فلن أدفع لهم فدية لأنك أنت من فعلت ذلك بنفسك، وسأستريح من شقاوتك. وهناك ستقوم العصابة بتربيتك من جديد بالتعذيب والضرب، وستكون وقتها مستحقًا لكل هذا لأنك لم تسمع كلامي."

ربما هذه هي المحادثة الوحيدة التي لا زلت أذكرها لوالدي بسبب تكرارها كثيرًا، وأتمنى نسيانها. فهو لا يعلم كم كانت تلك المزحة مرعبة ومهينة بالنسبة لطفل صغير مثلي. كنت أشعر بالإهانة لأن والدي يقول إنه سيرتاح مني إن حدث ذلك، وأسأل نفسي:

"ولماذا هو متعب مني وهو أصلاً لا يراني إلا يوم الجمعة؟" ثم كانت ترهبني الأفكار الأخرى، إذ كنت أتخيل نفسي أرتدي ملابس قذرة وممزقة، وأجلس على الأرض مقيداً لدى عصابة من الأشرار. ويطلبون مني أن أتسول أو أسرق محافظ النقود لهم، وإن رفضت فإنهم يقومون بتعذيبي كما أرى في الأفلام. حين أتذكر ذلك الآن، لا أعلم بما أشعر. فهو مزيج من الرغبة في الضحك على سذاجتي كطفل عبيط وبريء، وبكائي لأني مررت بهذه التجربة السخيفة مع من يُفترض أنه مصدر الأمان والحماية لي. بل إنني أحياناً أشعر بالخوف على أمي لوجودها الآن مع أبي بدوني. لقد كنت أنا من يجعلها تشعر أن حياتها ذات معنى، وكان نجاحي في رحلة الحياة يمثل لها الأمل الذي تحيا من أجله، وتتحمل الصعاب لبلوغه.

وها أنا أعود وأتساءل: هل كان عدلاً أن أتركها بعد كل ما تحملت من أجلي؟

حين عدت إلى المنزل، نظرت إلى ورقة مربعات چوهاري ملقاة على مكثبي، وقلت لنفسني:

"لعل ما أفكر فيه الآن هو جزء من المنطقة المخفية التي أعرفها عن نفسي، ولكنني أخفيها عن الآخرين."

## ١٦. الكيرتان وسر عزوفي

بما أننا بدأنا في نهايات شهر نوفمبر وبدأت الإجازة الصيفية، لذا أقترح عمل رحلتنا الأخيرة لهذا العام الدراسي في أول شهر ديسمبر، وستكون أيضًا احتفالًا بالكريسماس ونهاية العام، ولكن على الطريقة اليوجية.

هكذا قالت لنا كارين في حصة اليوجا أمس وهي في قمة الانفعال، أو كما يقولون So excited.

حزنت لأنها ستوقف الحصة بسبب الإجازات... فأنا ليس لدي إجازة طويلة مثل طلبة البكالوريوس والماجستير. أنا كطالب الدكتوراه أعتبر باحثًا، وليس طالبًا، ولذلك يعطوني راتبًا وتكون إجازتي الرسمية غالبًا هي فقط أسبوع الكريسماس. ولكن الواقع يقول إن الأنشطة والاجتماعات وتواجد المشرفين يتناقص تدريجيًا منذ الأسبوع الثاني لديسمبر لأنهم يجدونها فرصة للحصول على إجازتهم السنوية والاستمتاع بالصيف.

أقنعت زانج وإيميلي بالقدوم معي للرحلة، والتي كانت هذه المرة متجهة إلى جولد كوست، وهي مدينة سياحية جميلة تقع على المحيط الهادئ وقريبة من بريزبان، ونصل إليها بالقطار مسافة ساعة تقريبًا.

تقابلنا في محطة القطار واتجهنا إلى جولد كوست، ثم ركبنا الترام لنذهب إلى الشاطئ المحدد لنا من قبل المنظمين.

هناك على الشاطئ، وجدت كارين ونيك وبعض الزملاء الذين قابلتهم في الحصى وفي الرحلة السابقة.

بعضهم كان يسبح والبعض يجلس في الشمس، ولكن الغريب أن معظمهم ارتدى قبعات أو ملابس خاصة بالكريسماس.

هذا المشهد يدخل عقلي في مرحلة شديدة من الارتباك؛ لا أزال غير معتاد على أن ديسمبر ويناير هما من شهور الصيف هنا، فنحن في الجزء الجنوبي من الكوكب. ولكن عقلي الباطني لا يزال مقتنعًا أنهما شتاء مثلما عشت حياتي كلها في مصر، كما أن الصورة المرسومة في ذهني عن الكريسماس وحفلات رأس السنة ترتبط بالملابس الشتوية الثقيلة كما كان الوضع في مصر، والجليد كما كنت أشاهد في كل أفلام الكارتون وأنا صغير أو في الأفلام التي تدور أحداثها حول الكريسماس. ولكن أن يكون الكريسماس مع مايوهات ومثلجات وشاطئ! كل هذا لا يزال مربكًا لعقلي.

عند الغروب، بدأ المنظمون في تزيين الخيمة التي نصبوها منذ الصباح على البلاج بالأضواء الجميلة والزهور. وقالوا إن مفاجأة الرحلة هي عمل كيرتان مرة أخرى. أخرجوا الآلات الموسيقية من سياراتهم وبدأ العزف الهادئ الجميل في البداية، ثم السريع الهيستيري المحموم بعد ذلك.

أنا لا أستمتع بالكيرتان. تأكدت من ذلك حين انسحبت في هدوء من الخيمة ومشيت وحيثًا أراقب الغروب وقدم الليل. وجدت نفسي أردد: "سبحان الله" على هذا الجمال الذي أراه في مشهد

المحيط، ثم أخذت أدعو الله أن ينقذني من أزمتي والبليلة التي أعيشها، ويحميني من المشاكل النفسية أو من فقدان عقلي، والذي هو أعلى قيمة أمتلكها في حياتي ومستقبلي.

لاحظ زانج غيابي فقلق، وجاء ليطمئنني. أخبرته أنني بخير، ولكنني كنت أود بعض الخلوة والانفراد بنفسي.

وهنا قلت له: "أنا أيضًا لا أستمتع بالكيرتان ولا بتلك الطقوس التي يفعلونها. هذا المشهد يذكرني بشيء اسمه حلقات الزار في مصر. أنا لم أشهد أيًا منها، ولكنني كنت أشاهدها في الأفلام القديمة المصرية."

ضحك زانج وقال: "أنا أيضًا أحب في اليوجا الجزء الخاص بتمرينات التمدد والاسترخاء ولست مندمجًا مع هذا الكيرتان." ثم أضاف: "ولماذا هذا الانفعال خاصة حين يذكرون رامًا وكريشنا؟"

قلت له: "أنا أيضًا لفت نظري هذا، وكنت أنوي البحث عنه. هيا بنا فلنقم بذلك الآن."

فتحت هاتفني وبحثت في جوجل عما هو الكيرتان، ووجدت الإجابة كما يلي:

الكيرتان هو ممارسة يوجية تتضمن التردد والغناء كنوع من التأمل الجماعي، وهو جزء من يوغا البهاكتي، التي تركز على التعبد من خلال الغناء وعبادة الآلهة الهندوسية. نشأت الكيرتان في الهند في القرن السادس، ويعني اسمها بالسنسكريتية "سرد

أو وصف فكرة أو قصة." تعتمد الممارسة على ترديد أسماء أو تعاويذ الآلهة، وغالبًا ما تشمل الغناء والرقص والعبادة. يُعتقد أن الكيرتان تحمل طاقة شافية وقوة تحويلية، وهي رحلة لاكتشاف الذات.

وهنا فهمنا أنا وزانج أصل الموضوع، وفهمت أنا بصفة خاصة سر عزوفي وابتعادي عن هذا الكيرتان. ولكن الجملة الأخيرة عن اكتشاف الذات ذكرتني مرة أخرى بچوهاري ومربعاته الأربعة. فقلت لنفسي: "هذه فرصة جيدة لأكمل اللعبة وأحاول سؤال زانج وإيميلي عما يرونه من صفاتي، والتي قد تبدو مجهولة لي، لأتعرف على المنطقة العمياء."

## ١٧. زانج وإضاءة العتمة

بدأت الحديث مع زانج وطلبت منه أن يخبرني عن بعض الصفات التي يراها جيدة أو غير جيدة في شخصيتي. تعجب من سؤالني وسألني عن السبب، فأخبرته بأنني سمعت عن موضوع الوعي الذاتي من يمنى وأعجبتني الفكرة، وأرغب في تطبيقها على نفسي.

ابتسم وقال لي بأدب شديد كعادته:

"نحن تعاملنا فترة ليست بالطويلة، مجرد عدة شهور، ولكن سأجتهد لأعطيك تغذية راجعة ببناء بناءً على ما رأيته منك وما سمعته عنك خلال أحاديثك عن ماضيك."

ثم أضاف:

"سأبدأ بنواحي القوة لديك. أرى أن أهمها المثابرة والعزيمة." شعرت بالاعتزاز ورفعت رأسي في شموخ وكأنني أسمع الأغنية الشهيرة:

"المصريين أهمه، حيوية وعزم وهمة."

قلت له: "ولمَ تقول ذلك؟"

فأجاب: "لديك همة عالية تساعدك على إنجاز أي مشروع تبدأ فيه. انظر إلى نفسك؛ لقد ذكرت لي أنك حققت بطولات في رياضة السباحة وأنت صغير ونجحت بتفوق طوال حياتك، كما أنك

استطعت الحصول على تلك المنحة للدكتوراه. وأنا وأنت نعلم كم هو صعب الحصول عليها. تعلم أنهم يقولون:

You need commitment to start, but you need persistence to accomplish what you start.

أي 'تحتاج إلى الالتزام لتبدأ، ولكن تحتاج إلى المثابرة لتُنجز ما بدأت.' وأنت تمتلك كليهما: الالتزام والمثابرة.

قلت له: "كلام جميل، وماذا أيضًا؟"

فقال: "سأخبرك عن صفة لا أراها جيدة"

ابتسمت تقديرًا لأدبه الشديد وحرصه على اختيار كلمات لطيفة مثل "غير جيدة".

ثم قال: "يا باسم، الوقت لديك منضبط فيما يخص العمل، ولكن خارج العمل فإن تعبيراتك عن الوقت تربكني. أنت مثلًا تقول لي: سأمر عليك مساءً."

أسألك: متى تحديدًا؟ فتقول: بعد تناول العشاء.

أسألك: يعني متى تحديدًا؟ فترد: حوالي السادسة أو السابعة مساءً.

هذا يربكني ويربك جدولي؛ فأنت تعطيني فترة زمنية تصل إلى ساعة كاملة قد تأتي خلالها. هل تعلم كم من الأعمال يمكنني إنجازها خلال ساعة؟ يمكنني حضور محاضرة أونلاين، أو اجتماع، أو الذهاب إلى تدريب الموسيقى. هناك مئات الأشياء التي يمكنني فعلها خلال ساعة، وأنت تريدني أن أفرغ جدولي لمدة

ساعة انتظارًا لقدومك. وهذا ليس وقت الزيارة نفسها، بل مجرد الانتظار!"

ثم أضاف: "تعلم ماذا كنت أفعل خلال وقت الانتظار حتى لا أخرجك؟ كنت أخصمه لقراءة قصة أو لترتيب المنزل لأن كلاهما مرن، ويمكنني التوقف عنهما فور قدومك."

شعرت بالخجل الشديد من كلام زانج، وشكرته من قلبي على صراحته. بعدها قررت عدم سؤال إيميلي كما كنت أنوي؛ فأنا أود أن أحلل ما قاله كي أسلط الضوء على بقعة عمياء في شخصيتي، والتي أضاعها زانج بكلماته الحكيمة.

بدأت بتحليل النقطة الإيجابية وهي الالتزام والعزيمة والمثابرة. أعتقد أن الفضل في غرس هذه الصفات يعود لأمي، التي كانت تستخدم معي أسلوب التحفيز الخارجي والداخلي. بدأت أمي بتعليمي الالتزام عن طريق وضع جداول مكتوبة تحتوي على الأعمال التي ينبغي عليّ القيام بها، وأمام كل عمل درجة معينة. على سبيل المثال:

وضع ألعابي في صندوق اللعب بعد الانتهاء: درجة واحدة.

وضع طبقي الفارغ في الحوض: درجة واحدة.

تعليق ملابس المدرسة في الدولاب بعد خلعها: درجة واحدة.

أداء فروضي المنزلية دون تباطؤ أو مساعدة كبيرة منها: ٣ درجات. الصلاة: ٣ درجات.

إذا أكملت ١٠ درجات، كنت أحصل على مكافأة مثل:

نصف ساعة إضافية لمشاهدة الكرتون المفضل لدي. أو عشاء من أحد المطاعم السريعة التي أحبها، خاصة "الوجبة السعيدة" (Happy Meal)، التي كانت تأتي مع هدية أو لعبة يتم الإعلان عنها في التلفزيون، مما جعلني أشعر وكأنها جائزة كبرى. في أحيان أخرى، كانت مكافأتي التزامي لعدة أيام متواصلة هي الخروج معها يوم الجمعة أو السبت، وقد نذهب إلى السينما. أتذكر جيدًا عندما عُرض فيلم The Mask لجيم كيري في دور السينما، اصطحبتني أمي لمشاهدته. كذلك، كانت تفعل الشيء نفسه مع معظم أفلام أحمد حلمي.

وعندما ظهرت شرائط الفيديو الخاصة بأفلام علاء الدين، طرزان، والأسد الملك (The Lion King)، كانت تشتريها لي في عيد ميلادي أو عند تفوقي. كانت تلك الأفلام بمثابة ثروة بالنسبة لي؛ إذ كان أطفال الجيران والأقارب يغبطونني على امتلاكها، ويتقربون مني لأدعوهم إلى منزلنا لمشاهدتها.

أما التحفيز الداخلي، فكان يتمثل في تشجيعها لي على متابعة البرامج التي تتحدث عن العلماء والأدباء بإعجاب شديد. وأتذكر جيدًا حماسها ونحن نشاهد العالم المصري أحمد زويل ولقطات استلامه جائزة نوبل. يومها قالت لي:

"هذا هو مستقبلك؛ ستكون مثله عالمًا عظيمًا وسأفخر بك، بل ستفخر بك مصر كلها، كما تفخر بالعمالقة مثل زويل، ونجيب محفوظ، ومجدي يعقوب، وغيرهم من العظماء."

ولم يكن هذا فقط، بل كانت تحبيني في العلم والتعلم، وكانت تكرر دائماً: "المعرفة قوة، وأحياناً هي أكثر قوة من النقود إذا استطعنا استخدامها بطريقة صحيحة."

كانت تجعلني أشعر أن السعي للمعرفة ليس مجرد واجب، بل وسيلة لإنارة عقلي وتحقيق التفوق.

والآن حان الوقت لأفكر في تلك النقطة "غير الجيدة" التي ذكرها زانج. الالتزام بالمواعيد؟ آه، بالطبع! ماذا كنتُ أتوقع من زانج، وهو الياباني الذي يقدس الوقت كأنه عبادة؟ دقة متناهية، إحساس داخلي بالساعات والدقائق، وربما حتى الثواني. نحن نتحدث عن شعب اخترع القطار الذي إذا تأخر ثلاثين ثانية، يعتذر لك موظفو المحطة وكأنهم ارتكبوا جريمة حرب!

أما أنا؟ فأنا وريث عائلة مصرية أصيلة تُمارس فن إعطاء المواعيد الغامضة منذ الأزل. تذكرتُ كيف كنتُ أسمع أبي يُحدد مواعيده دائماً بصيغة: "عدي علي في المحل بعد الظهر." انفجرتُ ضاحكاً عند هذا التفكير. قلت في نفسي: "إذا كان زانج منزعجاً لأنني قلت له 'بعد تناول العشاء' مع تحديد غامض يمتد ساعة كاملة، فماذا سيحدث لو قابل أبي؟"

تصورت المشهد: زانج يسأل والدي: "متى يمكننا اللقاء؟" وأبي يرد عليه بكل هدوء: "بعد الظهر." هنا، أتخيل وجه زانج يتلَوّن بدرجات الطيف، بينما يحاول فك شفرة هذا الموعد المفتوح.

"بعد الظهر" يا زانج، يمكن أن يكون في أي وقت بين الواحدة ظهرًا وحتى... حسنًا، ربما التاسعة مساءً، إذا كنا كريمين في التقدير! لكن، على أي حال، قررت أن أبدأ في معالجة هذا "العيب الوراثي". فليس من العدل أن أترك زانج يعاني مع هذه المواعيد المطاطية التي تشبه علكة لا نهاية لطولها. الوقت لأن أصبح نسخة أفضل من نفسي... أو على الأقل نسخة أقل إرباكًا لزانج! قطع أفكاري صوت كارين يناديني حيث جلست وحيدًا على الشط وقالت لي:

"لقد انتهى الاحتفال... لم تشاركنا؟"

قلت لها بدبلوماسية حتى لا أخرجها: "كنت أحتفل بطريقتي الخاصة."

## ١٨. إيميلي والمنطقة العمياء

بعد أيام قليلة، قابلت إيميلي في الجامعة وجلسنا نتناول غداءنا معًا. فكانت فرصة مناسبة لطرح السؤال الذي سألته لزانج عليها. وما إن سألتها حتى أطلقت ضحكتها الشهيرة، تلك الضحكة التي نعرفها جميعًا عنها، مزيج من الأنوثة المفرطة وروح الدعابة التي تبدو وكأنها تسخر من قائمة إنجازاتها العلمية والرياضية الضخمة. وكأن تلك الضحكة تقول: "أنا أستطيع أن أفوز بميدالية ذهبية وأضحك كأني في إعلان شوكولاتة في الوقت نفسه!"

ابتسمت وأجابتنني بصوت يحمل عبق الروح اللاتينية:

"أنت شهم، هذا أجمل ما فيك."

ثم أضافت وهي تذكرني بموقف حدث من عدة شهور:

"هل تذكر ذلك اليوم الذي تعطلت فيه سيارتي على الطريق؟ كنت أعيش أزمة مالية ولم أكن أريد إخبار أهلي. اتصلت بك حينها، وحين علمت بالموقف أصلحت السيارة على حسابك، وقلت لي بكل بساطة: ردي لي المبلغ حين تتحسن ظروفك. ولم أستطع ذلك إلا بعد شهرين، وخلال تلك الفترة لم تذكرني بدينك ولا مرة واحدة!"

ابتسمت لها وقلت:

"لكننا زملاء وأصدقاء، هذا طبيعي. لا أريد التحدث عن هذه الأشياء البسيطة. ما يهمني يا إيميلي الآن هو معرفة عيوبي!"

ضحكت مجددًا وقالت:

"لا أعتقد أن هذه عيوب بمعناها التقليدي، ولكنني أشعر أنك دائماً خائف من الغد، من المجهول، وكأنك تتوقع أن الحياة لن تبقى على حالها أبداً."

حاولت الدفاع عن نفسي وقلت لها:

"ولكنك تعرفين أن التغيير هو الحقيقة الوحيدة في الحياة"

ردت بثقة:

"نعم، لكن التغيير قد يكون إيجابياً وليس دائماً سلبياً! المشكلة أنك بهذه المشاعر تفقد لحظات حلوة ولا تستمتع بحياتك. باسم، أنت حين تضحك من قلبك، تخاف بعدها مباشرة وتقول شيئاً مثل: يا رب ما يصير شيء سيئ!"

في داخلي فكرت: "كيف أشرح لها أن الضحك من القلب بالنسبة لنا هو دعوة ضمنية لدرء الكارثة القادمة؟ نحن لا نضحك إلا ونقول بعدها اللهم اجعله خيراً!"

ثم أضافت بلهجة ساخرة: "كم مرة عرضت عليك أن ترقص معنا السامبا لتحسن مزاجك، لكنك ترفض دائماً وتقول إنك لا تريد تضبيع وقتك؟"

قلت لها بحزم: "لأن لدي أهدافاً أريد تحقيقها!"

ضحكت بصوت أعلى وقالت:

"لا، ليس هذا السبب! أنت خائف من السعادة، والدليل أنك تجد وقتاً للرياضة واليوجا، لكن الرقص يخيفك كما يخيفك الضحك من القلب."

ربما كانت إيميلي على حق، لكنني لم أعترف بذلك بالطبع!  
حين عدت إلى المنزل، تذكرت كيف كانت جدتي كل مساء تقطع  
ورقة اليوم من النتيجة المعلقة على الحائط، برغم أن اليوم لم ينتهِ  
بعد، ثم تقبل يدها من ظاهرها وباطنها وتقول:

"الحمد لله، لقد مرّ اليوم على خير."

كنت أمزح معها وأقول:

"تُشعريني، يا جدتي، وكأنك كنتِ تتسلقين قمة إيفرست أو  
تخوضين معركة حامية! لقد قضيتِ معظم اليوم في المطبخ  
تُعدّين الطعام، ثم جلستِ في غرفتكِ تصلين وتسبحين. وأقصى  
ما فعلته هو تناول العشاء معنا ومشاهدة المسلسل في المساء.  
ما الذي قد يحدث لتخشينه إلى هذا الحد ويجعلك تحمدين الله  
على انتهاء اليوم؟"

كانت تضحك وترد قائلة: "كان يمكن أن يحدث الكثير والكثير،  
لكن ربنا أنقذنا."

فأسألها، مستغربًا: "مثل ماذا؟"

فتجيب: "لا قدر الله، قد يشبّ حريق في المنزل وأنا أطبخ، أو  
يصاب أحد أبنائي أو أحفادي بمكروه في مدارسهم، أو يأتي لص  
ليسرقنا، أو..."

كنت أضحك وأقول مازحًا:

"كفى يا جدتي! لا أريد سماع المزيد من هذه التشاؤميات."

الحق يُقال، عندما جئت إلى أستراليا وشاهدت في النشرات الإخبارية أخبار حرائق الغابات التي تمتد لتدمر بيوتًا بأكملها، أو الفيضانات التي تغرق المنازل، وأرى أصحابها يلقون بالأثاث المدمر في القمامة، تذكرت جدتي. وقتها، قلت لنفسي:  
"لقد كانت على حق!"

## ١٩. هل ستختفي القهوة؟

استيقظت من نومي بعد ليلة مضطربة لم أهنأ فيها بالراحة. نهضتُ أخيرًا من السرير وبدأت تماريني الرياضية المعتادة، ثم أخذت دُشًا سريعًا لاستعادة نشاطي. بعدها، أعددت كوبًا من الإسبريسو الذي أعشقه، وساندويتش من الجبنة الممزوجة بفيجيميت (Vegemite)، وهو معجون أسترالي شهير مصنوع من خلاصة الخميرة. يتميز بطعمه المالح والغني، ويُعتبر عنصرًا أساسيًا في وجبات الإفطار الأسترالية. وأنا أحببته حين تذوقته هنا وصرت كثيرًا ما أضيفه لفظوري.

جلستُ أمام شاشة الكمبيوتر أتناول فطوري وأتابع أخبار العالم. لفت انتباهي خبر غريب: آفة غامضة أصابت آلاف أشجار البن حول العالم. العلماء حائرون، ولم يشهدوا شيئًا كهذا من قبل. ما أثار دهشتي أكثر هو عجزهم عن تفسير ماهية هذه الآفة أو سرعتها المذهلة في الانتشار. كيف يمكن لآفة واحدة أن تدمر محاصيل البن في اليمن والبرازيل وكولومبيا في الوقت نفسه؟ نظرت إلى موبايلي لأرى تاريخ اليوم، فانتفضت مذعورًا وقلت لنفسني:

"لقد كان يوم أمس هو اليوم الأخير للمهلة الشهرية التي منحتها لي شوشو، الشجرة الحكيمة."

شعرتُ بقلق غريب يزحف داخلي. تساءلت: "هل يمكن أن تكون الشجرة جادة في تحذيرها؟ ولماذا البن تحديدًا؟ ما الحكمة من وراء

ذلك؟" حاولتُ طرد هذه الأفكار من رأسي، لكنني وجدتني أتابع الأخبار باستمرار. الأوضاع كانت تتدهور بسرعة؛ الإصابات تتزايد ومحاصيل البن تتلف بلا رحمة.

لم يمضِ وقت طويل حتى أعلن العلماء والخبراء أن ما لدينا من قهوة هو فقط ما تم تصنيعه سابقًا، وبمجرد نفاذ المخزون، سيصبح العالم بلا قهوة.

ذهبتُ إلى الجامعة كالمعتاد، لكن خلال جلوسي في الكافيه وقت الظهيرة، سمعتُ الطلاب يتحدثون عن أزمة القهوة. نظرتُ إلى شاشة التلفاز في الكافيه ورأيتُ مشاهد تدافع الناس بجنون لشراء أكبر كمية ممكنة لتخزينها. ومع توالي الساعات، بدأت الأخبار تتحدث عن إصابات وحالات وفاة بسبب التدافع.

بعد بضعة أيام، جاء الخبر الأسوأ: آفة غامضة تضرب أشجار الكاكاو بنفس الطريقة. الخبراء يقولون إن العالم سيشهد نهاية القهوة والشوكولاتة معًا، وأن الأجيال القادمة لن تعرف طعم الكابتشينو المزين بالشوكولاتة، ولن يفرح الأطفال بقطع الشوكولاتة اللذيذة.

شعرتُ بحزن عميق؛ فكلاهما يمثلان جزءًا من أجمل متع الحياة بالنسبة لي. مهما كان مزاجي سيئًا، كانت قطعة من الشوكولاتة مع كوب قهوة كفيلة بتحسين حالتي. مجرد استنشاق رائحة القهوة في الصباح كان يمنحني شعورًا بالحيوية. "خسارة كبيرة، ألف خسارة!" قلت لنفسي.

## ٢٠. همسات وضحكات

قضيتُ ليلتي مفكرًا دون نوم، وفي الصباح الباكر قررتُ الذهاب إلى الشجرة لأواجهها وأسألها بوضوح إن كانت لها علاقة بما يحدث. خطر ببالي فكرة رائعة؛ سأجري معها حديثًا وأسجله بالفيديو ليكون دليلًا دامغًا على صحة كلامي.

بمجرد وصولي إلى الحديقة، شعرتُ وكأن الأشجار من حولي تنظر إليّ بتقرب، وسمعتُ همسات وضحكات مكتومة. قلتُ في نفسي: "يبدو أنني أصبحت مجنونًا رسميًا! الآن لا أشعر فقط أن الأشجار تتكلم، بل تضحك أيضًا!"

تابعت سيرتي، وما إن اقتربت من الشجرة حتى سمعتها تضحك وتقول:

"كنت بانتظارك، يا بسبوستي."

"أفندم؟ (بسبوستك)!"

"قررت أن أطلق عليك اسمًا أدلك به: بسبوستي! نحن الآن أصدقاء وفريق عمل واحد، ويجب أن نكسر الحواجز بيننا، ما يُعرف بـ'إذابة الجليد'."

"أوه، حضرتك تتكلمين عن إدارة الفريق أيضًا! يا لفرحتي بك!"

"طبعاً أنا أقوم بذلك منذ أول يوم، ألم أقل لك أن تنادينني ب (شوشو) من قبل؟"

"حسنًا، يا شوشو، لدي سؤال مهم."

"أعرفه! تريد أن تسأل عن علاقتي بما حدث للقهوة والشوكولاتة. قلت لك كنت بانتظارك."

"إِذَا، ما إجابتك؟"

"أولاً، توقف عن تصرفاتك الغريبة وأغلق كاميرا الهاتف؛ فلن تستطيع تسجيل أي كلمة مني لأنها غير مسموعة أو مرئية لغيرك. وثانيًا، نعم، لي علاقة بالأمر، فقد انتهت المهلة المحددة من هيئة الشجر المتحدة، وبدأنا أولى خطواتنا الجديدة. هل اقتنعت الآن أننا جادون في تهديدنا، أم أنك ما زلت تبحث عن طيبب نفسي يعالجك؟"

جلست على الأرض مذهولاً وقلت باستسلام: "ماذا بيدي أن أفعل؟ أنتم تعلمون أن لا أحد يصدقني."

"كاذب! أمك صدقتك."

"لأنها أُمِّي وثق بي. ربما عقلها يرفض فكرة أن ابنها الذكي قد أصابته لوثة عقلية. ربما تصدقني لتجنب صدمة أو خيبة أمل."

"حتى وإن كان هذا سبب تصديقها، فهي أول عضو في فريقك، وعليك بدء العمل."

"إذن ساعدوني... ضعوا لي خطة. أنا مرهق ومشتت. يمكنني التنفيذ، لكن لا تطلبوا مني التفكير واتخاذ القرارات."  
"يا مسكين، قطعت قلبي! سأساعدك، وسأطلب من الهيئة أن تمد لك يد العون، لكن تذكر، خطوات الإضراب مستمرة، وكل أسبوع سيُضرب نوع من الأشجار حتى تتحقق رسالتنا ويستيقظ البشر من غفلتهم."

## ٢١. الدعم الإعلامي وانا

بعد يومين، قابلتُ الشجرة، أو شوشو كما طلبتُ مني مناداتها، فقالت لي بابتسامة وشيء من الفخر:

"أبشرك يا بسبوستي! لقد تحدّثتُ عن حالتك ومشاكلك للهيئة، وللحق، أشفقوا عليك، وقرّروا تعيين استشاري لمساعدتك على الظهور إعلاميًا لتوصيل رسالتنا بشكل مؤثر."  
"خبر جيد! من هو المستشار؟"

"الأستاذة نخلة."

"ومن هي إن شاء الله الأستاذة زعفة ولا نخلة تلك؟"

"احترم نفسك يا بسبوستي." ثم ابتسمت بحكمة وقالت: "إنها الأستاذة نخلة، ممثلة نخيل العالم. إنها ليست مجرد نخلة عادية، بل خبيرة إعلامية وواجهة للنخيل العالمي."  
"أنا آسف، لكنني لم أتعود بعد على كل هذا!"

"يجب أن تدرك أهمية النخيل! شجرة النخيل ليست فقط رمزًا للمعمرة، بل تُعد غذاءً متكاملًا، وهي مذكورة في القرآن الكريم. حتى أن مريم، عليها السلام، حينما وضعت عيسى هزّت جذع نخلة لتقوي جسدها من تمرها. ومن خشبها تُصنع الأدوات والوقود والأسمدة، كما أن أوراقها تُستخدم في صناعة السقوف والأثاث."

"حقّكم على رأسي، وحقّ النخيل على رأسي أيضًا. ولكن كيف ستتواصل معي الأستاذة نخلة؟"

"بالإيميلات، وأحيانًا قد تتواصل معك عبر مكالمات فيديو على الزوم."

"لا والله.. بجد! إن عقلي لا يستوعب ما تقولين... هل أنتم متطورون لهذه الدرجة؟"

قالت شوشو بفخر: "بالتأكيد، نحن متطورون، لكننا نستخدم التقنية بطرق سلمية تحترم الطبيعة، وليس كما تفعلون أتم. والآن، اذهب إلى بيتك، وسيصلك إيميل اليوم به كل الإرشادات." بمجرد أن غادرتُ الحديقة، تلقّيت رسالة إلكترونية من حساب غريب عليه حروف [Palm@TUN.com](mailto:Palm@TUN.com) ودعوة لاجتماع زوم في المساء. أدركت أن هذا هو إيميل الأستاذة نخلة، لكنه لم يُظهر أي نتائج على جوجل. تذكّرت كلام شوشو، وقلت لنفسي: "لا عجب؛ ربما هذه الأمور مرئية ومسموعة فقط لي."

وحين نظرت إلى الحروف TUN ابتسمت وقلت: "وجدتها! Trees United Nation هيئة الشجر المتحدة."

فتحت اللاب توب وجهزت كاميرا الموبايل لتسجيل اللقاء. وقلت لنفسي: "هذه المرة سأنجح في التسجيل." انتظرت لبضع دقائق، وما إن دقت الساعة السادسة حتى ضغطت على الرابط، لأجد نفسي أمام نخلة رائعة الجمال، لم أرَ مثلها في حياتي. بدت وكأنها تحمل وجه امرأة جميلة بلامح أسرة تشع منها الطيبة والحنان، عيناها الواسعتان بلون العسل تنظران برقة، وشعرها منسدل كسعف النخيل يتمايل مع النسيم.

سمعت صوتًا عذبًا يخاطبني، عذوبة لم أسمع مثلها من قبل،  
وكان النخلة نفسها تنبض حياة وتنطق بأسرار الزمن.  
قالت لي النخلة: "نحن سعداء لأنك تفهمت مهمتك وقبلت القيام  
بهذا الدور العظيم لإنقاذ الأشجار، فهذا هو ما سينقذ كوكبنا من  
الدمار. سينعكس ذلك على الإنسان والحيوان والطبيعة والمناخ  
والبيئة."

"أنا أسعد يا أستاذة نخلة."

"أنا لا أحب الرسميات. يمكنك مناداتي بـ(نانا)."

قلت في سري: "يا حلاوة! أصبحت أتعامل مع شوشو ونانا، آخر  
دلج."

ولكن ما قلته لها كان: "لا توجد مشاكل، كما تحبين."

"نحن كلنا كأشجار بسطاء ومتواضعون، ولا تهمنا الألقاب مثلكم  
أيها البشر. ما يهمنا هو المنفعة العامة."

"شكرًا يا ست نانا."

قالت: "والآن سنضع معًا خطة من عدة محاور:

المحور الأول: سنساعدك لتشتهر إعلاميًا، وهذا شيء أساسي كي  
يكون لك متابعون، مما سيجعلك قوة مؤثرة في عالم التواصل  
الاجتماعي.

المحور الثاني: مساعدتك على خلق قاعدة من الأشخاص  
المحيطين بك لتكوين فريق عمل مخلص لك. حيث سنزودك  
بمعلومات مسبقة يمكنك أن تشاركها مع فريقك، ليصدقوك  
عندما تحدث الأمور"

"اتفقنا."

"إذن أخبر أمك وأستاذك وصديقتك اليمنى أن الخطوة القادمة في إضراب الأشجار ستكون في أشجار الفواكه، وأنها ستبدأ بعد يومين."

قلت بتردد: "ولكن أمي..."

"نعلم أنها تدعمك، لكن يجب أن يكون دعمها لك نابغًا من إيمان حقيقي، وليس مجرد دعم أم لابنها. كما قلت أنت بنفسك ذلك لشوشو."

وأضافت: "أريدك أن ترتدي ملابس خضراء فاقعة أو أي ملابس غريبة تلفت الأنظار من وجهة نظرك، وتجلس أمام أهم مبنى في جامعتك وأنت تحمل صورة لمشاكل البيئة والمناخ. اكتب على صدرك عبارة 'مضرب عن الطعام تضامناً مع البيئة'، واطلب من اليمنى أن تصوّر وتنتشر الفيديو على كل المنصات الإعلامية، وتبلغ جمعيات ونشطاء البيئة في الجامعات وفي المدينة."

"لكني لا أريد الإضراب عن الطعام."

"لا بد أن تضرب عن الطعام ليومين أو ثلاثة على الأقل حتى يأخذ الجميع قضيتك بجدية."

حين انتهيت من مقابلي معها وراجعت تسجيل الكاميرا، صدمت بأن ما تم تسجيله هو صوتي فقط، وكأنني كنت أتكلم مع الهواء. أدركت حينها أن النخلة نانا، تمامًا مثل الشجرة شوشو، لا يراها أحد غيري. من تلك اللحظة قررت التخلي عن محاولة التسجيل وسلمت بالأمر الواقع.

## ٢٢. بزوغ الحقائق

رددتُ في نفسي كلمات باولو كويلو:

"إن القرارات تشكل فقط بداية شيء ما. فعندما يتخذ شخص ما قرارًا، يغوص فعلاً في تيار جارف يحمله نحو وجهة لم يكن يتوقعها إطلاقاً حتى في الحلم لحظة اتخاذ ذلك القرار." جلسْتُ مع يمني وأخبرتها بكل شيء. طلبتُ مساعدتها في نشر الفيديو، لكنها لم تصدقني. فقلت لها: "أنا أعرف أنه يصعب عليك تصديق ما قلته، ولكن هناك دليل مؤكد معي." قالت: "وما هو؟"

فأخبرتها أن الخطوة التالية هي إضراب أشجار الفواكه بعد يومين. ثم قلت لها: "إن حدث ما أخبرتك به بالفعل، هل ستصدقيني حينها؟"

قالت بتردد: "لا أدري، دعنا ننتظر ونرى." ابتسمتُ، وقد شعرتُ ببعض الأمل في أن تنضم لفريقي. ثم، لا أدري لماذا، قررتُ فجأة إخبارها أنني ماضٍ في موضوع الوعي بالذات، وأنتي جمعتُ بعض المعلومات المفيدة عن نفسي. ربما أردتُ أن أثبت لها أنني أخذت الموضوع بجدية. ثم طرأ على بالي أن أسألها السؤال نفسه، فقلت لها: "ما رأيك في شخصيتي يا يمني؟"

ارتبكت يمنى ارتباكًا شديدًا لم أتوقعه، وردت بخجل: "من أي ناحية تقصد؟"

رددت: "أريد أن أسلط الضوء على مربع المنطقة العمياء، وكما سألت زانج وإيميلي، ها أنا أسألك."

شعرتُ بها تتغير، كمن أصيب بإحباط ما، وقالت لي: "منطقتك العمياء يا باسم أكبر مما كنتُ أتخيل. أنت لا ترى أشياء كثيرة حولك وداخلك."

وانصرفت مسرعة. أصبتُ بحيرة كبيرة من موقف يمنى، ولكني لا أدري لماذا شاهدتها بصورة مختلفة لم ألاحظها من قبل.

عيونها السوداء الواسعة ورموشها الكثيفة تضيء على وجهها جمالًا هادئًا، وشعرها الأسود الطويل ينسدل بانسيابية على كتفيها وظهرها.

كنتُ دومًا أراها الصديقة الوفية والعقل الحكيم، ولكني اليوم شعرتُ بها ولأول مرة كأنثى جميلة.

بقيتُ فترة طويلة أفكر فيما حدث وأحله. لدي شعور غامض ولذيذ ومحير. لم يفارق مخيلتي المشهد الذي حدث، وحمرة وجنتيها وارتباكها، ثم انصرافها السريع. وظللتُ أتساءل: هل تعني بكلماتها المعنى الذي أفكر فيه الآن؟ معقول لم ألاحظ ذلك؟ ولو أن هذا حقيقي، فما مشاعري أنا تجاهها؟ ثم هل أنا إلى هذه الدرجة من عمى القلب والبصيرة كما نقول في مصر؟

قطع أفكاري صوت استلام رسالة على موبايلى من أستاذة نخلة، أقصد نانا، تذكرني فيها بما يجب عمله مرة أخرى، وتطلب مني إبلاغها بما فعلت. فأفقتُ من أفكاري، وأجبتها برسالة تطمئنها. ثم طلبتُ لقاء إدوارد وأخبرته بما حدث، لكنه كان أكثر شكًا من أمي ويمنى، وأصرَّ عليّ ضرورة ذهابي إلى طبيب نفسي آخر. بل وهددني قائلاً: "لا أريد كتابة تقرير قد يؤثر على مستقبلك، لكن عدني بأنك ستراجع طبيبًا."

وعدته، وطلبتُ مهلة يومين لأرى ما سيحدث لأشجار الفاكهة. جاء اليوم المنتظر. تابعتُ كل نشرات الأخبار صباحًا، لكن للأسف لم أسمع شيئًا عن بدء إصابة الفواكه. بدأتُ أشعر بالقلق؛ كنتُ أتابع الأخبار كل ساعة تقريبًا. مع مرور الوقت، زاد شعوري بالتوتر، وبدأتُ أشك في قواي العقلية من جديد. شعرتُ أنني أدور حول نفسي في غرفتي. قررتُ الخروج والمشي قليلًا لعلمي أهدأ. بينما كنتُ أسير بلا هدف، راودتني فكرة دخول أحد البارات لشرب شيء ينسيني همومي. لكنني تذكرتُ وعدي لأمي قبل سفري أن أحافظ على تعاليم ديني، كي لا تندم يومًا على دعمي وتشجيعي للسفر. عدلتُ عن الفكرة وواصلتُ السير. فجأة، تلقيتُ اتصالًا من إدوارد. تفاجأتُ، لأنه لم يتصل بي تليفونيًا من قبل؛ كان تواصلنا يتم دائمًا عبر الإيميلات أو الاجتماعات. أحبته بقلق، فقال بحزم: "تعال غدًا إلى مكتبي الساعة التاسعة

صباحًا. لقد أصابت الآفة الغامضة محاصيل الفاكهة، وتم الإعلان عن ذلك منذ قليل."

ما إن أنهيتُ المكالمة، حتى تلقيتُ اتصالًا من يمنى تطلب مني لقاءها غدًا بعد موعدني مع البروفيسور. وقبل أن أخلد للنوم، اتصلتُ أُمِّي عبر مكالمة فيديو. كانت قد سمعت الخبر، واتصلتُ بي لتعبّر عن فخرها وسعادتها بي لاختياري لهذه المهمة السامية من قِبَل الأشجار.

قبل أن أنام، توضأتُ وصليتُ شكرًا لله على نعمة الصحة والعافية. تأكدتُ الآن من سلامة قواي العقلية، وشكرتُ الله لأنه أظهر صدقي وكشف الحقيقة لفريقي الصغير. دعوتُ الله أن يوفقني في لقائي مع إدوارد وفي كل ما هو قادم.

## ٢٣. شكوك ومخاوف

ذهبتُ متفائلاً لمقابلة أستاذي إدوارد، وكنتُ على يقين بأنني قد بدأتُ أكسب ثقته. لكن خيبة الأمل كانت نصيبي. اتضح لي أن له رأياً مختلفاً تمامًا.

بدأ حديثه بجملة لم أتوقعها: "كل إنسان يمكنه أن يخطئ، وليس في هذا مشكلة؛ لكن المشكلة تكمن في إصرار الإنسان على الخطأ." ثم تحول الحوار فجأة إلى تحقيق يشبه استجواب الشرطة: "أعلم أنك من الشرق الأوسط، لكن لا أذكر الآن ما جنسيتك؟" أجبته بهدوء: "أنا مصري."

"تذكرت الآن. لقد تحدثتُ معك حين بدأتُ دراستك عن إعجابي بحضارة الفراعنة. والآن أخبرني، هل أنت من عائلة متعصبة دينياً؟"  
"لا"

"هل لديك أقارب من جهة والدك أو والدتك ينتمون لتيارات إسلامية متشددة أو إرهابية؟"  
"لا"

"هل لديكم جيران أو معارف من تلك الجماعات؟"  
"لا... لكن لماذا كل هذه الأسئلة؟"  
"أجبني فقط... هل اتصل بك هنا أحد المتطرفين دينياً، سواء من الجماعات الإسلامية أو غيرها؟"

"لا"

"هل تتواصل مع هيئات بحثية في الصين أو روسيا دون علمي؟"

"لا"

حينها حاول أن يبدو ودودًا وقال: "يا باسم، أنا أتحدث معك بطريقة ودية وأريد مساعدتك. أخبرني الحقيقة لو أن هناك من جندك من قبل أي جماعة أو دولة، حتى أتمكن من حمايتك."  
"قلتُ لك الحقيقة مرارًا وتكرارًا!"

نظر إليّ بجدية وقال: "ما قلته غير قابل للتصديق، لكن بعد تفكير عميق، بدأتُ أعتقد أن ما يحدث قد يكون مخططًا إرهابيًا. ربما بدأت هذه الجماعات حربًا بيولوجية ضد البشر من خلال تدمير الأشجار والمحاصيل."

أجبتُه بنبرة لم تخفِ استهجاني: "لو كان الأمر كذلك، لكان من الأسهل عليهم تدميرنا مباشرةً بدلًا من حرماننا من القهوة والشوكولاتة والفواكه. ألا ترى أنه من غير المنطقي أن تكون جماعة إرهابية بهذه الرقة في عقابنا؟! ثم أي جماعة إرهابية عطوفة تطلب من البشر إيقاف الحروب والتلوث في كل مكان؟ هل تعتقد أن هذه المطالب يمكن أن تكون رسالة من إرهابيين؟"  
انتهت المقابلة، وبقي كل منا على موقفه.

مرت الأيام، وتوالت الأخبار عن اختفاء أنواع معينة من الفواكه. لم يعد الأمر مجرد شائعة؛ بل أصبح حديث كل نشرات الأخبار وتقارير وسائل الإعلام.

بدأ العلماء والأطباء وخبراء التغذية يحذرون من عواقب الوضع إذا استمر على هذا النحو.

كانت التحذيرات واضحة وصادمة. الأطباء تحدثوا عن نقص الفيتامينات وتأثيره على صحة الإنسان، مشيرين إلى احتمالية ظهور أمراض نقص الفيتامينات، خصوصًا لدى الأطفال وكبار السن.

الاقتصاديون دقوا ناقوس الخطر حول ارتفاع أسعار الفواكه البديلة وتأثيره على الفقراء، بينما حذر علماء البيئة من تأثير اختفاء أشجار الفاكهة على النظم البيئية وتوازنها.

انتشر القلق بين الناس. كنتُ أراقب الوضع وأتساءل مع الجميع: ما الذي سيحدث لو استمر هذا الكابوس؟

## ٢٤. العطاء والأشجار المثمرة

لا أدري لماذا شعرت برغبة عارمة في التحدث إلى شوشو... أقصد طبعًا الشجرة الحكيمة التي تحدثني.

ذهبت إليها وأخبرتها بأنني قابلت نانا، وبأن الأمور كلها ستمر على ما يرام، ولكنني صارحتها بمخاوفي وقلت لها:

لا زلت غير مقتنع بصحة اختياركم لي. أنا إنسان بسيط ومسال، ولا أحب الظهور أو الشهرة أو الخلافات. أتمم محتاجون إلى شخص يمتلك مهارات قيادية قوية، وأنا لست هذا الشخص.

ابتسمت وغمزت لي بعينها: من يدري، لعلك كذلك وأنت لا تعلم؟ وهنا حكيت لها أيضًا عن شكوك إدوارد، وكالعادة كانت على علم بكل ما يحدث. طمأنتني وقالت لي:

"لا تخف. أنت صديقنا الآن والمتحدث الرسمي باسمنا لدى البشر، لذا سنحميك وسنثبت صحة كلامك في الوقت المناسب. المهم أن تسمع الكلام وتكون مطيعًا للأوامر التي ستصلك من خلال نانا."

قلت لها: حاضر، سأقوم بكل ما يطلب مني.

قالت: وبما أننا صرنا أصدقاء، دعني أعترف لك بسر. لقد كنت ظالمة حين أخبرتك أن الشجر يختلف عن البشر كليًا. هناك بعض التشابهات بيننا وبينكم، ونحن وأنتم نعلم ذلك.

قلت: تفضلي أشجيني... ماذا تقصدين؟

قالت: مثلاً، نحن لدينا الشجر المثمر الذي يستفيد الإنسان والطيور من ثماره، ولكن لدينا أيضًا النباتات المتسلقة. تلك النباتات تتسلق على الأشجار القوية وتتغذى على غذائها، ولا تعطي ثمارًا أبدًا. أليس ذلك مشابهًا لكم أيها البشر؟ هناك إنسان خُلِقَ ليعطي، وتجد أمثال هؤلاء البشر يجدون ويكدحون ليهنأ أبناؤهم وأحبائهم بثمار عملهم المضني. وهناك أيضًا بعض المتسلقين الانتهازيين الذين يعيشون على حساب غيرهم، وربما يحصلون على أموال لا يستحقونها لمجرد النفاق أو التملق، وربما بالخداع والنصب والاحتيال على الغير. وأحيانًا، بالقيام ببعض الأعمال التافهة التي لا نفع من ورائها، يكسبون الملايين جراء ذلك فقط لأنكم، أيها البشر، صرتم تعيشون زمانًا يمثل التفاهة حرفيًا. قلت لها: تشبيه جميل أحبيك عليه.

قالت: وهناك تشابهات أخرى. مثلاً، بعض الأشجار الرائعة الجمال التي تلفت الأنظار لجمالها دون أي كد أو تعب، فقط لأنها تزهر زهورًا رائعة أو رائحتها عطرة مثل الجاكاراندا. وعلى النقيض، هناك أشجار أخرى تظل على من حولها وتُمدّ العالم بالأكسجين، ولكن لا أحد يلتفت إليها. الأولى تشبه الفتاة الجميلة في عالمكم البشري التي تُفتح الأبواب أمامها لمجرد أن الله خلقها جميلة، وهناك أخرى محدودة الجمال قد تقوم بالعديد من الأعمال النبيلة النافعة، ولا يلتفت أحد إليها.

قلت: يبدو أنني سأغير وجهة نظري عنك يا شوشو. لقد اتضح أنك حكيمة فعلاً.

هزتني كلمات شوشو بدرجة لم أكن أتخيلها. لا أدري لِمَ؟ لا، الحق أنني أدري، ولكنني لا أريد الاعتراف لنفسي بما يدور في خلدي. لقد ذكرتني بالفارق بين أمي والآخرين.

إن أمي مثال حي للشجرة المثمرة التي تغدق بثمارها على كل من حولها.

حكى لي جدي أن أمي كانت شديدة التفوق في دراستها منذ طفولتها، وكانت تحصل على أعلى الدرجات دومًا في كل السنوات الدراسية. وكان أفراد عائلتها يطلقون عليها "الدكتورة" منذ نعومة أظفارها، لأن أمي كانت تحلم بذلك، ولأنهم توقعوا لها تحقيق هذا الحلم بكل سهولة.

حين وصلت الثانوية العامة، اجتهدت كعادتها، ولكن جدي مر بوعكة صحية شديدة فترة امتحاناتها. فكانت تقضي ليالي الامتحانات معه بالمستشفى، مما أثر بالفعل على أدائها وحصلت على مجموع أقل بكثير من المطلوب للطب وكليات القمة، كما تسمى لدينا في مصر. ولأن هذه الأزمة خلّفت نوعًا من الشلل النصفي لجدي وأحالاته للمعاش المبكر، تأثر دخل الأسرة كثيرًا. رفضت أن تعيد السنة الدراسية لتلتحق بكلية الطب كما كانت تحلم.

تقول لي جدتي: لقد دخلت أُمي عليها الحجرة في إحدى الليالي وقالت لها: لعله خيرًا أنني لم أدخل الطب. فمن أين كان والدي سيوفر لي نفقات دراستها الباهظة ولمدة سبع سنوات؟ لذا، لن أعيد الثانوية العامة كما اقترحت عليّ، فنحن في احتياج لمصاريف الدروس لعلاج أبي ومصروف إخوتي الأصغر. سأدخل كلية التجارة لأن مجالاتها واسعة ويمكنني العمل بسهولة بعد تخرجي. هذا قدرتي وأنا راضيت به.

تقول جدتي: لقد اعتصرت قلوبنا حزنًا بقرارها هذا، وحاول والدها أن يثنيها عن قرارها، ولكنها صممت. وكنت أسمع صوت بكائها ليلاً في غرفتها، فكنت أتألم أشد الألم، ولكن ما بيدي حيلة. حين أتذكر ما سمعته من جدتي وكيف أنه في فترة الجامعة عملت والدي بائعة في أحد المحال لتساعد أسرته، أتعجب لأن هذا كان شيئًا غير مألوف في بلادنا، خاصة في ذلك الزمن، فالأبناء لا يعملون إلا بعد التخرج. ولكن يبدو أن أُمي كانت دومًا مختلفة.

ما فعلته أُمي من ثلاثين عامًا هو ما يفعله كل البنات والشباب هنا. فبمجرد بلوغ أحدهم الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يبدأ الجميع العمل، حتى وإن كان والدهم ميسور الحال، وذلك حتى يتعلموا الاعتماد على النفس، وتقدير قيمة العمل، واكتساب المال من الجد والاجتهاد. ومن الصعب جدًا أن يحصل أحدهم على وظيفة إذا لم يبدأ عمله مبكرًا. إذ سيتساءل صاحب أي عمل عن سبب تأخره في التوظيف لسن العشرين مثلًا؟ وربما يشك

أصحاب الأعمال في أن لديه مشاكل في شخصيته جعلته عاجزًا عن العمل والنجاح كأقرانه. لذا ستجد من الطبيعي جدًا أن يكون زملائي بالجامعة هم أنفسهم من يعملون بالمطاعم والكافيتريات ومحال السوبرماركت الشهيرة للحصول على المال اللازم لحياتهم ومصروفاتهم الدراسية.

هكذا، أُمي ركبت قطار التضحيات منذ صباها، والآن ما تسمعه هو: ذلك كان قرارك وتلك هي اختياراتك.

وهنا انتبهت لأفكاري وقلت: لعله حلمها بلقب "الدكتورة" هو ما دفعها إلى تشجيعي على الاستذكار والتفوق منذ طفولتي، وتشجيعي على دراسة الدكتوراه. أتذكر حماسها وإصرارها لدرجة أنها باعت بعض أساورها الذهبية دون علم والدي لأشتري تذكرة الطيران لأستراليا، وأدفع حصتي من التأمين الطبي، الذي يشمل طوال فترة المنحة بالدولارات، وهو مبلغ كبير بالنسبة لظروفنا ولفارق العملة.

## ٢٥. مع التنفيذ الفعلي

بدأت أفكر فيما سنفعله أنا ويمنى للتمهيد لما سأفعله. قلت لها: "لقد سمعت أن أفضل أسلوب لتوصيل رأي أو الحصول على تضامن بخصوص قضية ما هو أسلوب سرد القصص."

أكدت لي يمى صحة هذا الرأي، وقالت: "هذا معروف من الناحية النفسية، وهذا سبب حب الجميع لمشاهدة الأفلام السينمائية والمسلسلات، إذ إنها تحكي لهم قصصًا. كذلك يحب الكثير قراءة الروايات أو سماعها صوتيًا لنفس السبب."

قلت لها: "هذا كلام رائع. وعليه، سأحكي لك موقفًا حقيقيًا حدث لي حين وصلت إلى أستراليا، وأنتِ حاولي أن تجدي لنا شخصًا يبيع في كتابة المنشورات على وسائل التواصل الاجتماعي، واطلبي منه تحويل ما سأقوله إلى منشور يحتوي على قصة جذابة." وبدأت أحكي لها التالي:

"أتذكر ذلك اليوم جيدًا. كان أول يوم لي هنا. ذهبت إلى السوبرماركت لأشتري بعض الحاجيات. أنهيت الحساب، وقبل أن آخذ أغراضي، سألتني الموظفة بابتسامة ودودة: 'أين حقبتك؟'

أه... لم أكن أفهم ماذا تقصد. أجبتها بتلقائية: 'ليس معي حقيبة. ممكن حقيبة بلاستيكية؟'

هزّت رأسها نفيًا، وقالت: 'لا يوجد' وتركت أغراضي بجانبها، وكأن الأمر بالنسبة لها بديهي. أما بالنسبة لي، فقد كان مربكًا. ماذا سأفعل الآن؟ الحاجيات مكدسة أمامي، وأنا لا أملك حتى كيسًا! تملكني الخجل وسألتها مجددًا: 'إذن... ماذا أفعل؟' نظرت إليّ باستغراب، كأنها تتساءل عن غريب لا يعرف هذا النظام. قالت ببرود: 'إما أن تأتي بحقيبة خاصة بك، أو يمكنك شراء حقيبة متعددة الاستخدامات من المتجر'

في ذلك اليوم، شعرت بشيء من الضيق، كيف أن الأمر يُحتم علي أن أحمل حقيبتني الخاصة! ولم أستطع أن أفهم لماذا يُجبرون الناس على هذا الإجراء. تذكرت بلادنا، حيث تُعبأ المشتريات في أكياس بلاستيكية وفيرة، ولا أحد يطلب منك أن تحضر حقيبة معك.

لكن انظري إلى أين وصلت الآن... صارت هذه العادة جزءًا من حياتي، بل وصارت طبيعية، حتى إنني لا أخرج بدون حقيبتني القماشية. كيف تغيّر تفكيري؟ هل بسبب ما يتخذونه من إجراءات لتقليل استخدام البلاستيك أم لأنني صرت الآن أدرس تأثير التغيرات المناخية والكوارث على البيئة؟ فأدركت كيف أن كل قطعة بلاستيك تضر بالأرض والمحيطات والكائنات الحية، وكيف أن المحافظة على البيئة ليست مجرد فكرة، بل مسؤولية شخصية."

قالت يمى: "هذا كلام لطيف. وأعتقد أن ما حدث معك ربما تكرر أو لازال يتكرر مع الطلبة القادمين من دول أخرى لم تفرض قيودًا شديدة بخصوص هذه الأشياء. ولكن ليس هذا ما سيهز مشاعر الناس ويدفعهم للتفكير في قضيتك بجدية."

قلت: "معك حق."

أضأت وجهها ابتسامة عريضة فجأة، وقالت بحماس:

"جاءتني فكرة رائعة! لقد تذكرت (آن) زميلتي التي تدرس الدعاية والتسويق. سأطلب منها مساعدتنا في مهمتنا، وأن تنصحننا بأفضل طريقة للفت الأنظار ونشر رسالتنا."

استشارت يمى آن، وقد رسمت لنا تصورًا لما يمكننا القيام به. كما أنها طلبت الانضمام للفريق لقناعتها أننا سننقذ الكوكب. كان هذا إنجازًا كبيرًا لم أتوقعه.

وبالفعل، في ظهيرة يوم مشمس، جلست وسط حديقة الجامعة بملابس تنكرية عبارة عن زي فرعوني بحيث لا يمكن تجاهله، واضعًا على صدري لافتة كُتبت عليها بخط كبير وواضح: "أنا مضرب عن الطعام تضامنًا مع البيئة: كفى تلوثًا وكفى انبعاثات!" جلست على مرأى من الجميع، في مكان استراتيجي يراه مكتب رئيس الجامعة وأعضاء هيئة التدريس والعمداء الذين يمرّون دائمًا من هذا الاتجاه.

حملت بيدي صورة توضح الآثار السلبية للتلوث والانبعاثات الحرارية على الأشجار، رافعًا إياها بتصميم لافت. وبجانب الصورة،

كنت أعرض بيدي صورًا لجذوع أشجار يابسة، وكل ذلك لأبرز رسالتي وأحث الجميع على إدراك خطورة هذه الأزمة. كانت اليمنى تقف غير بعيد عني، تتابع بحماس ودقة. وجهزت كاميرا الهاتف وبدأت آن تساعدنا بتصوير المشهد بالكامل، وجمعوا لقطات تظهر تصميمي على التغيير. وتنقلت كل منهما بعين حريصة لتوثيق كل تفاصيل هذا الاعتصام الصامت: ملامحي الجادة، صمودي رغم نظرات المارة واستغرابهم، رفعي للصورة وكأنها تعبر عن وجع الأشجار التي أمثلها في هذا الاحتجاج. بدأ الطلاب بالتجمع، وبدأت تساؤلاتهم وتكهناتهم تدور حول ماهية هذا الإضراب. لكنني حافظت على هدوئي ولم أفسر لهم أي تفاصيل، مكتفيًا بالرسالة التي أردت نشرها حول التلوث وتأثيراته على البيئة.

سارعت اليمنى بنشر الصور والفيديوهات على وسائل التواصل الاجتماعي، وأرسلتها لبعض الجمعيات والنشطاء البيئيين في الجامعات والمدن الكبرى، لعل وقفتي تشعل لديهم شرارة الاحتجاج ضد هذه الأزمة البيئية المتفاقمة. صممت على البقاء ساكنًا وصامتًا مع الإضراب عن الطعام تنفيذًا لاتفاقي مع شوشو ونانا. وخلال صمتي لساعات طويلة، كانت الأفكار تجول في رأسي عن كل شيء. أكثر ما فكرت به كان فكرة النباتات المتسلقة.

## ٢٦. الجدار والنباتات المتسلقة

سنوات طويلة وأنا أشعر بحاجز يزداد سمكًا وطولًا ينمو بيني وبين أبي.

لا أعرف له سببًا واضحًا، أو ربما هناك بعض الأسباب التي لا أقوى على مصارحة نفسي بها. مثلاً، بدأ هذا الجدار أولاً بسبب أحاديثه المخيفة عن العصابة واختطافي في طفولتي، ونما بسبب عدم تواجده معنا أو اهتمامه بنا.

ولكن هناك أسباب أخرى جعلت هذا الجدار يكبر ويزداد سمكًا... مثل جديته الزائفة. فهو يحيط نفسه بهالة من الغموض والجدية، وكأنه مخترع عظيم أو كاتب كبير أو طبيب بارع. ولكنه في الواقع ما هو سوى إنسان شبه عاطل ورث أمواله من أبيه، تمامًا مثل الأشجار المتسلقة التي تحدثت عنها شوشو، ولم يحقق أية إنجازات بشخصه.

لقد كان جدي لأبي عبقرياً بحق. كانوا يقولون عنه: "يتحول التراب في يديه إلى ذهب."

جدي كان التاجر العصامي الذكي الذي بنى نفسه بنفسه وصار مليونيراً في زمن كانت المليون جنيه شيئاً عزيزاً ونادراً. وكان بالإمكان شراء فيلا بحديقة بعشرة آلاف جنيه مصري. لقد استثمر أمواله التي حصل عليها في بداية حياته من تجارة الأقمشة، استثمارها في شراء الذهب وفي شراء الأراضي البعيدة عن العمار،

والتي كان الناس يخافون من شرائها بحجة أنها في الصحراء. مثلاً، اشتري عدة قطع أراضٍ في مصر الجديدة قبل أن يذيع صيتها، وبعد أن ازدهرت ونمت، باع بعضها بمكاسب هائلة ليشتري قطعاً عديدة في مدينة نصر، والتي توقع بفراسته أنها ستحذو حذو مصر الجديدة. وبالفعل، كسب أموالاً طائلة استثمر بعضها في قرى الساحل الشمالي في بدايته في التسعينيات، ومات بعدها. كنت أنا لا زلت رضيعاً، فورث أبي وعمي كل هذا الإرث العظيم مع كميات من سبائك الذهب التي كان جدي يشتريها من كل مكسب يحصل عليه من بيع الأراضي، ويخفيها (تحت البلاطة) قائلًا إن الذهب هذا هو الأمان الوحيد إذا ما اضطرت الأسواق وبارت التجارة"

وبمرور الزمن، استثمر عمي، وهو مهندس مدني، أمواله في العقارات، وسار على نهج جدي بطريقة أخرى؛ حيث كان يبني العمارات في المناطق الجديدة ثم يبيعها حين تعمر. ففي القاهرة نفذ مشاريعه في مدينة نصر، ثم في المدن الجديدة كالعبور والشروق والشيخ زايد، واستمر حتى وصل إلى العاصمة الإدارية حاليًا. ونفس الشيء تكرر معه في المصايف؛ إذ ظل يشتري ويبيع الشاليهات في القرى القديمة بالساحل، مثل مراقيه ومارايبلا، ليشتري في القرى التي أنشئت أحدث منها، ثم يبيع تلك عند ارتفاع أسعارها ليشتري في الأحدث. وصارت شركاته العقارية تعمل في كل مكان حتى وصل إلى العلمين الجديدة حاليًا، مرورًا

بكل قرى مارينا ثم هاسيندا، وهكذا. لقد صار عمي أحد كبار رجال الأعمال الذين يُشار إليهم بالبنان في المجال العقاري. لم يكتفِ عمي بذلك، بل أنشأ مصنعًا للنسيج، وقد زود هذا المصنع بالأجهزة الحديثة والعمال والمهندسين المهرة، مما ساعد على تمييز إنتاجه وجودته، وذاع صيته في مصر والدول العربية. ويتم استضافته في البرامج التليفزيونية والبودكاست للتحدث عن رحلة نجاحه هو وأبيه الراحل.

أما والدي العزيز، وهو الذي درس إدارة الأعمال في كلية التجارة، ويفترض به أن يدير أعماله جيدًا، فلقد قرر استثمار أمواله في البورصة وفي استيراد الملابس واللعب والأدوات المنزلية من الصين، وخسر جزءًا عظيمًا من رأس ماله والذهب الذي ورثه. وهو الآن يعيش حياته مكتفيًا بإدارة أحد محال جدي للأقمشة، وهو المحل القديم في شبرا الخيمة، الذي كان نصيبه من التركة، وهو آخر ما تبقى لديه من إرث جدي، ويعيش من ريعه حياة نستطيع أن نقول إنها مستورة فقط والحمد لله.

أتذكر ما حكته لي جدي عن زواج أمي من أبي، حيث شاهدها حين كان يودع بعض الأموال بالبنك الذي عملت به بعد تخرجها، في مهمة كلفه بها جدي. لفت نظره جمالها الهادئ ووداعتها، وحاول بكل الطرق التقرب إليها ولفت نظرها بطريقته المعتادة في إضفاء تلك الهالة العظيمة حوله حتى أعجبت به. وبالطبع رحبت أسرتها، التي تنتمي لطبقة البرجوازية المستورة، بالشاب الرياضي

والمتعلم وابن التاجر الثري، وتم الزواج. وأنجاني بعد عام من الزواج، ولم يكتب الله لهما إنجاب إخوة لي، برغم رغبة أمي في ألا أنشأ وحيدًا، وذهابها لأطباء عدة أملًا في أن تنجب لي أخًا أو أختًا، ولكنها إرادة الله أن أبقى ابنًا وحيدًا.

لم تكن مشكلتي في نشأتي كطفل وحييد؛ فلقد عوضت ذلك بالأصدقاء والأقارب والجيران، ولكن مشكلتي كانت شعوري المستمر بأن هناك شيئًا يزعجني في علاقة أبي وأمي. كنت أشعر أن أمي زوجة طيبة وأم عظيمة وإنسانة مجتهدة، ولكنني كنت أشعر أنها مغلوبة على أمرها. كانت تحاول دومًا إرضاء غرور أبي، ولكنه كان لا يرضى أبدًا. كان دائم العبوس معنا في المنزل، كما كان دومًا يتحدث بمنتهى الثقة في النفس وبطريقة شديدة الجدية، وكأنه في اجتماع هام سوف يتقرر فيه مصير العالم كله.

لم أستطع التعاطف معه حين سمعت عن خسائره في التجارة؛ إذ بلغني أن عمي عرض عليه الشراكة ليكونا يدًا واحدة بعد وفاة جدي ويكمل الطريق معًا، ولكنه رفض وقال إنه يرى أن البورصة سوف تجلب له مالًا أكثر وأسرع. وحذره عمي مرارًا وتكرارًا من الاعتماد على البورصة والاستيراد في عمله، ولكنه لم يسمع النصيح.

لقد تحملت أمي غرور وكبرياء أبي لتوفر لي حياة سعيدة وهادئة ومستقرة من وجهة نظرها. ولكن ما لم تعلمه أمي أنني كنت أعلم جيدًا كم هي مقهورة وكم ظلمها أبي. كنت أسمع خلافاتهما كل

ليلة، وأستمع إلى نصح أمي له بالبقاء مع عمي أو الرجوع إليه وعدم التكبر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الثروة، ولكن والدي لم يصغ لها يومًا.

لقد عشت بسبب هذا المغرور حياة أقل كثيرًا مما كنت أستحق، ومما كان يفترض أن يكون لو استثمر بطريقة صحيحة أو حتى حافظ على ما تركه لنا جدي.

بسبب أبي وطيشه وفشله، عشت حياة الطبقة المتوسطة، ودخلت مدارس تجريبية، بينما أبناء عمي درسوا في مدارس دولية. وكنت أذهب للمصيف في الإسكندرية أو رأس البر، بينما هم يذهبون إلى أوروبا وأمريكا وسنغافورة. أنا لم أحقد عليهم أبدًا، بل كنت أحبهم، ولكنني كرهت وضعي وما فعله بي أبي.

وأكثر ما كان يغيظني أكثر من كل ذلك هو غروره وإعجابه بعقله ورضاه عن نفسه والهالة التي يحيط بها نفسه من الكبرياء والغموض والجدية ليخفي خيباته المتتالية وإضاعته لإرث جدي. أما المصيبة الأكبر فبدأت عندما كبرت ووصلت لفترة المراهقة وبدايات الرجولة، لأني حين كنت أذهب لوالدي في المحل لطلب نقود أو استئذانه في أمر ما، كنت أجد شخصية والدي مع العاملات بالمحل مختلفة تمامًا عن شخصيته بالمنزل لدينا. فكنت أجده دائم الابتسام معهن، ويلقي بعض الدعابات أحيانًا عليهن، بل وأحيانًا يضحك ويقهقهه، وهذا ما لم أشاهده أبدًا منه في منزلنا ومع أمي.

منذ تخرجت وصرت رجلاً مستقلاً، حاولت بكل السبل وضع حدود فاصلة تمنعه من التدخل في حياتي؛ فقد كفاني ما فعله من سنوات طويلة من تدخلات ونصائح زائفة من عقله السطحي، التي لو أخذت بها، لكان مصيري مجرد مساعد له في محل الأقمشة ينتظر وصول الزبائن ويسلي وقته بالتحدث مع العاملات ومغازلة الجميلات منهن، كما يفعل هو. لذا كانت فرصتي العظيمة أن أهرب من تواجدي معه حين حصلت على تلك البعثة لأدرس في أستراليا.

حزني الوحيد كان سببه أنني تركت أمي معه، إذ كنت ابنها الوحيد ومؤنسها وأنيسها، ولكني أنوي الاستقرار هنا بعد حصولي على الدكتوراه، وربما الجنسية بعدها، وسوف أدعوها لزيارتي. ومن يدرى، ربما استطعت حينها البقاء هنا والانفصال عن هذا الكائن المغرور، أو على الأقل تركه بمفرده مع هؤلاء الساقطات اللاتي يضحكن عليه ويحصلن على الأموال منه. أعلم أنها ضحت بحياتها وكرامتها لتضمن لي حياة أفضل من وجهة نظرها.

عشت عمري كله لا أعلم: هل ما فعلته أمي كان صواباً أم خطأ؟ لقد عاشت مع رجل لا يجمعها به سوى وجودي ورغبتها في أن أنشأ في مستوى مادي أفضل من مستوى عائلتها كما كانت تتوهم، ولكن حتى هذا لم يتحقق.

ويعود السؤال: لماذا شجعتني أمي بشدة على السفر للخارج؟ هل كانت أمي ترغب في إبعادي عن جو المنزل الكئيب وإنقاذي

من قسوة وعجرفة وغرور أبي؟ أم كانت تفعل ذلك كخطة مستقبلية لها كي تلحق بي يومًا ما بعد أن أستقر، وتضمن هروبًا آمنًا بعيدًا عن زوجها الخائن، وسوف يبدو هذا الهروب طبيعيًا، مجرد زيارة لابنها، ثم تذهب ولا تعود؟ معقول؟ هل كانت أمي بهذه الحكمة وهذا الذكاء؟ لا أعتقد أن نواياها كانت كذلك، ولا أنها قامت بهذا التخطيط الاستراتيجي المحكم. أغلب الظن أن هذه أفكاره وهذا ما أتمناه، وبالتالي قمت بإسقاطه على أمي، ولعله نوع من تخدير الضمير حتى لا أشعر بالشفقة عليها، وأطمئن نفسي بأنها هي من أرادت ذلك وبشدة. بعد كل هذه الأفكار وطوفان الذكريات، تأكد لي أنني تعرفت الآن بصورة جيدة على المربع الثالث من مربعات چوهاري في وعيي بذاتي، وناقشت ما أعلمه عن نفسي ولا يعلمه الآخرون، أي المنطقة المخفية. والآن لم يبق لي سوى المربع الرابع، وهو المنطقة المجهولة لي وللآخرين. ترى، كيف سأكتشفها؟

## ٢٧. نجاحات وإخفاقات

مع نهاية اليوم الأول من إضرابي عن الطعام بالجامعة، بدأ الخبر ينتشر ويمتد إلى سائر الجامعات في كوينزلاند، ثم سيدني وملبورن، بل وفي أستراليا كلها. وأيضًا بدأت موجات من السخرية على ما فعلته تغزو وسائل التواصل الاجتماعي.

الكثير ممن شاهدوني كانوا يضحكون على ما فعلته أو يسخرون منه أو يتعجبون منه.

البعض يتهمني بأنني أرغب في الشهرة ولفت الأنظار، وبدأت أقرأ المنشورات:

مؤكد يبحث عن تابعين لصفحته (Followers) ولكنه ليس ذكيًا بدرجة كافية ليجتذبهم له، فما فعله قد ينفر أي شخص من متابعته.

أحدهم رسم كاريكاتيرًا مضحكًا لما أرتديه، وقال: "دعوا هذا الفرعون يموت جوعًا".

شخص آخر قال: "لعله سيطلب لجوءًا سياسيًا بعدها، ويقول إنه مضطهد في بلده لأنه يدافع عن البيئة".

قالت إحدى الفتيات: "ولم كل هذه الدراما؟ نحن نحب أن نحافظ على بيئتنا، ولكن لا داعي لهذه التمثيليات السخيفة".

ولكن مع كل هذه السخرية اللاذعة، كان هناك قلة قليلة متعاطفة معي. وجاءني بعض المندوبين الممثلين لمنظمات حماية البيئة غير الهادفة للربح لدعمني وللشد من أزرِي. وقال لي أحدهم: "لقد حاولنا كثيرًا بالطرق المعتادة، ولم يسمع لنا أحد. من يدري؟ لعل المجتمع في حاجة إلى من يفيق من غيبوبته بطريقة غير مألوفة كتلك التي تقوم بها الآن".

وحين جاء الليل، وجدت شخصًا مهذبًا يحمل حقيبة كبيرة جدًا. عرفني بنفسه وقال:

"أنا مهند من الأردن وأعمل مهندسًا في بريزبان. لقد شاهدت ما فعله وأرغب في دعمك. أنت تستحق على الأقل النوم مساءً داخل خيمة مغطاة لتأخذ قسطًا من الراحة. وها أنا أحضرت لك تلك الخيمة وسأنصبها الآن هنا في حديقة الجامعة".

كانت يمني دائمًا معي وحوالي، تدعمني بكل وسيلة. كانت تمدني بالأخبار الإيجابية لتشد من أزرِي. وحين انصرف الجميع، بقيت قليلًا بعدهم لتتحدث معي، وقالت لي:

"وصل متابعوك إلى مئة ألف متابع على وسائل التواصل الاجتماعي".

ثم حاولت التحدث معي في موضوعات مختلفة للترويج عني. وحين سألتني عن أخبار لعبتي مع مربع چوهاري، قلت لها إنني أنهيت ثلاث مربعات، ولكني لا أعرف كيف سأكتشف الجزء الرابع من وعيي بالذات إن كان هذا الجزء مجهولًا لي ولغيري.

قالت لي يمنى:

"هذا الجزء تظهره المحن والتجارب. ولعل ما أنت فيه الآن سيكشف لك ولنا عن جانب في شخصيتك لم نكن نعلمه".  
في اليوم الثاني من إضرابي عن الطعام، بدأت المفاجآت تتوالى. انتشر الخبر سريعًا عبر وسائل الإعلام، وذكُر في الجرائد ونشرات الأخبار. فجأةً، وجدت نفسي محاطًا بعدد كبير من الصحفيين، عدسات كاميراتهم مسلطة نحوي، وأصواتهم تتداخل بأسئلتهم حول أسبابي ودوافعي.

وسط كل هذا، بقيت جالسًا في مكاني، مرتديًا زي الفرعوني، متمسكًا بإضرابي عن الطعام. كنتُ أشاهد العالم وهو يلتف حول رسالتي، وشعرت بأنني لم أعد وحدي في هذه المعركة.  
في اليوم الثالث من إضرابي عن الطعام، حدثت مفاجآت كبيرة. وصل عدد متابعيني على وسائل التواصل الاجتماعي إلى المليون، وصوري تصدرت جميع الصحف والنشرات. ووصل صدى الحدث إلى مصر، حيث كانت أُمي تتابع تطورات الموقف لحظة بلحظة عبر الهاتف، تدعمني بشدة وتشجعني على المضي قدمًا في قضيتي. كما كانت يمنى دائمًا إلى جانبي، تشد من أزرِي بالكلمات الملهمة. حتى أن، ومهند، وزانج، وإيميلي، وقفوا إلى جوارِي ودعموني.

أما إدوارد، فقد ظل غير مقتنع ولم يقدم دعمه، مما أثار حيرتي. والأكثر إثارة كان دعم أليسون، مشرفتي الأصغر، التي جاءت

بشكل مفاجئ في منتصف اليوم الثالث لتقف بجانبى، مما زادنى حماسة وقوة.

مع تصاعد الزخم، ظهرت تحديات جديدة. وصلت مجموعة من عمال الفحم والبتروال الذين بدأوا بالتظاهر ضدنا بشكل حاد، مهاجمين رسالتنا بعبارات استفزازية. تطورت الأمور سريعًا إلى خلافات واشتباكات بالأيدى بين بعض الحاضرين، مما استدعى تدخل الجامعة لتوفير الأمن. تم وضع مجموعة من رجال الأمن لحمايتى وضمان سلامة الحاضرين.

ورغم كل هذا النجاح والتأييد الشعبى، لم تتحرك أية من الجهات الكبرى أو الدول لدعمى، مما أثار تساؤلات حول جدية المؤسسات الكبرى فى الاستجابة للقضايا البيئية الحاسمة. اتصلت بي نانا وهنأتنى قائلة:

"لقد نجح هذا المحور من خطتنا. لقد صرت شخصية معروفة ومؤثرة إعلاميًا، ولديك الملايين من المتابعين. لقد صرت مؤثرًا (إنفلونسر)، وهذا ما أردناه. يمكنك الآن أن تتوقف عن إضرابك عن الطعام وتعود لطبيعتك".

عدت إلى منزلى منهك القوى، ولكنى سعيد بما حققته من نجاح لم أكن أحلم به.

وسعيد أيضًا بما لمستته من اهتمام ورعاية صادقة من يمنى. وسألت نفسى للمرة الثانية خلال ذلك الأسبوع:

"هل تحمل يمنى مشاعر خاصة لي؟ وإن كان نعم، ما هو شعوري الحقيقي تجاهها؟ هل نسيت لورا تمامًا ويمكنني الدخول في علاقة جديدة؟ أم أنني قد أظلمها إن ارتبطت بها الآن ولا زلت أحمل العديد من الذكريات في عقلي وقلبي للورا؟"  
أخذت أفكر في هذا الأمر حتى غلبني النوم، ورحت في سبات عميق.

## ٢٨. تداعيات آفة الفواكه

سمعت الأخبار والبرامج الإخبارية التي تتحدث عن تداعيات إصابة الفواكه بالآفة الغامضة التي اجتاحت العالم. كانت التقارير تشمل العديد من الكوارث، ومنها اختفاء فواكه مهمة كانت تعد مصدر الغذاء الرئيسي للعديد من الكائنات الحية. بدأت الحيوانات التي تعتمد على الفواكه كمصدر غذائي رئيسي، مثل القروذ والخفافيش والطيور، تواجه أزمة حادة في الغذاء. بدأت بعض الأنواع من الحيوانات المفترسة، مثل الأسود والنمور، تشعر بالجوع الشديد، فتوجهت نحو المدن والقرى التي تقع بالقرب من الغابات، حيث كانت تبحث عن فريسة بديلة، حتى لو كانت البشر. بدأت الهجمات على البشر في ازدياد، لأن الجوع كان يدفع الحيوانات المفترسة للبحث عن أي فريسة، مما أدى إلى مشاهد مأساوية في المناطق السكنية المجاورة للغابات. لكن الآفة لم تقتصر فقط على الحيوانات، بل امتدت تأثيراتها لتشمل النباتات أيضًا. بسبب اختفاء الفواكه، توقفت الحيوانات عن نقل بذورها عبر بيئاتها المعتادة، ما جعل الأشجار التي كانت تعتمد على هذه الحيوانات في التكاثر تواجه صعوبة بالغة في تجديد نفسها. فحتى لو كانت بذور الفواكه موجودة، فإن غياب ناقلي البذور الطبيعيين جعل نمو الأشجار الجديدة أمرًا مستحيلًا، ما ساهم في تفاقم الأزمة البيئية بشكل أكبر.

كان المشهد يتطور في جميع أنحاء العالم بسرعة لتصل الأزمات إلى مستوى لم يسبق له مثيل في التاريخ، حيث بدأت تتجلى صورة كوكب الأرض الذي يعاني من اختلالات بيئية شديدة يصعب التراجع عنها.

غياب البن والكاكاو والفواكه كان له تأثيرات عديدة سلبية على الاقتصاد، كذلك أدت الآفة التي ضربت الفواكه في العالم إلى سلسلة من الكوارث البيئية والاجتماعية التي هزت أسس النظام البيئي والمجتمعات البشرية.

تم الاتصال بي من قبل عدة برامج إخبارية ودعوني للحديث عن الأحداث والتداعيات التي نعيشها، لكن قبل أن أتخذ أي قرار قررت أن أستشير نانا. عندما سألتها عما يجب عليّ فعله بالضبط، أجابتنى قائلة:

"الآن يمكنك قبول هذه الدعوات، ولكن قبل أن تذهب إلى أي من البرامج، من الأفضل أن تقوم بعمل فيديو قصير تُبلغ فيه رسالتنا للعالم وتنشره على صفحتك الشخصية. هذا الفيديو سيُعد أداة مهمة لإبلاغ رسالتنا بشكل مباشر وواضح".

قمت بعمل الفيديو بمساعدة آن وزانج ويمني، وتم بثه وحقق إعجابات (لايك) وإعادة مشاركة من عشرات الملايين من البشر عبر قارات العالم كلها.

بعد نشر هذا الفيديو بيوم واحد جاءني اتصال من قسم الشرطة يطلب مني التوجه إلى هناك لأمر بالغ الأهمية. وعندما وصلت،

بدأوا بطرح العديد من الأسئلة حول أصدقائي وانتماءاتي، وكان من الواضح أن هناك شكوكًا كبيرة تساورهم بشأني. بعد يومين، تلقيت إشعارًا من الجامعة يفيد بأن إدوارد كتب تقريرًا سلبيًا عني، وأنتي مطلوب لمقابلة المرشد الأكاديمي لي طرح عليّ أسئلة ويتحدث معي عن حياتي ومواقفي في محاولة لدعمي، وهذا بدوره طلب تحويلًا للكشف على حالتي النفسية والعقلية لمرة ثانية.

ذهبت إلى شوشو وأنا في حالة من الحزن الشديد، وكأن العالم كله ينهار من حولي. دخلت إليها وأنا أقول:

"لقد فعلت كل ما طلبتموه مني، لكنني الآن أرى أن مستقبلي أصبح مهددًا. أخشى أن تنقلب الأمور ضدي. أنا لا أعرف ماذا سيحدث بعد كل ما جرى. هل سأظل هنا؟ هل سأتمكن من تجاوز كل هذه العواقب؟"

كنت في حالة من الضياع، حيث إن كل شيء كان يبدو على وشك التفكك.

قالت لي: "لا تخف، نحن معك، والأهم من ذلك تذكر أننا قمنا باختيارك للمهمة وسط مليارات البشر لأننا وثقنا في قدراتك، فيجب أن تثق أنت نفسك في قدراتك".

قلت لها: "ولكن الساسة والجهات المسؤولة في العالم لم يتحركوا حتى الآن. وبلغني أن بعض التقارير تكذب كل ما قلته وتدعي أن الإصابات التي حدثت في القهوة والشوكولاتة والفواكه كانت مجرد

إصابات عادية حدثت مصادفة، وسيتم حلها قريبًا، وأنه لا علاقة لها بتغير المناخ أو رسالتكم المزعومة من وجهة نظرهم".  
أجابني شوشو بنبرة هادئة: "لا تخف، نانا ستخبرك بالخطوة القادمة. لن تندم أبدًا على ما فعلته. أنت الآن جزء من رسالة أكبر، وأنت لا تراه الآن، لكنك ستفهم قريبًا".

## ٢٩- أسرار الطبيعة الأم

أخبرتني نخلتي العزيزة نانا أن الوقت قد حان لكشف ورقة أخرى من أوراق اللعبة، ودار الحوار التالي بيننا:

- هل تعلم يا باسم أن الطبيعة الأم تشمل كل شيء: النبات، التربة، والميكروبات وغيرهم؟
- نعم، أعلم بالطبع.
- وتعلم أيضًا أن كل ما وصلنا إليه من أزمة بيئية، وامتد إلى مناخ عديدة، هو بفعل البشر؟
- نعم، إلى حد كبير.
- هل سمعت مصطلح "أم الطبيعة"؟
- سمعته أحيانًا في لقاءات اليوجا، وفي بعض الكتابات عن الكوارث.
- رائع، ولكن اسمح لي يا باسم أن أشرح لك. عندما نقول "أم الطبيعة" أو كما يسميها البعض "الطبيعة الأم"، نحن نتحدث عن الأرض كما لو كانت أمًّا لنا جميعًا. تخيلها شخصية حكيمة تحبنا بلا حدود، وتمنحنا كل ما نحتاجه لنعيش. هي الهواء الذي نتنفسه، والماء الذي يروي عطشنا، والأشجار التي تمنحنا الظل والطعام. لكن أمنا الطبيعة ليست فقط معطاءة، بل قوية أيضًا. عندما نسيء معاملتها، تعاقبنا

بعواصفها وزلازلها، وكأنها تقول لنا: "انتبهوا، فأنا أستحق الاحترام".

• "أم؟ هل تتحدثين عن الأرض وكأنها شخص حقيقي؟"  
• "ليس شخصًا بمعنى الكلمة، بل فكرة. هي طريقة لفهم كيف أن الطبيعة هي جزء لا يتجزأ من حياتنا. إن عاملناها بحب واحترام، ستمنحنا المزيد. وإن أهملناها، ستذكّرنا بقوتها".

• فهمت قصدك، ولكن هذا كلام معروف للكثير ولعله مستوحى من قصص وأساطير قديمة، فلم قلت لي في بداية لقائنا إننا سنكشف ورقة أخرى من أوراق اللعبة؟  
• نحن في دفاعنا عن هذا الكوكب يلزمنا الآن أن نتحالف مع آخرين للوقوف بقوة أمام البشر وما يفعلونه من تلوث ودمار وحروب.

• آخرين!! من تقصدين؟  
• لقد تواصلنا مع ملكة مملكة الميكروبات، وهي وعدتنا بالتعاون معنا.

• يا مثبت العقل في الدماغ يا رب! الميكروبات دخلت اللعبة معنا! ألا يكفي ما نحن فيه؟

• لا تخف، فالميكروبات ليست دائمًا ضارة، وهناك الميكروبات النافعة التي نستفيد منها نحن كأشجار وأنتم كبشر.

• وكيف استطعتم إقناع تلك الملكة؟

- هددناها.
- أفندم؟!
- نعم! لقد وقع في أيدينا خطاب تاريخي كتبه فيروس أوميكرون أثناء وباء كورونا، وهددناهم بتوصيله للبشر إذا لم يساعدونا.
- وماذا كان مكتوبًا في هذا الخطاب؟
- اعذرني، ليس لدي وقت لإخبارك، ولكنني سأرسل الخطاب لك، لأنني لدي موعد الآن مع مندوبة أشجار البن.
- وهل لا زالت هناك أشجار بن؟ لقد افتقدنا قهوتهم بشدة.
- ضحكت نانا في شقاوة وقالت: طبعًا هم بخير. سأخبرك بسر صغير لأنني صرت أثق بك الآن. إن الآفة الغامضة التي حدثت مجرد تمثيلية، وهم وكل الأشجار الأخرى في العالم بخير، والحمد لله. وكل ما في الأمر أنهم امتنعوا عن طرح ثمارهم كوسيلة تأديبية للبشر. فنحن لسنا بلهاء لندمر أنفسنا بأنفسنا كما تفعلون أنتم بأنفسكم.
- فرحت من قلبي وقلت لها: هذا خبر رائع، ويعني أن القهوة والشوكولاتة والفواكه ستعود لنا مرة أخرى.
- طبعًا يا باسم، ولكن بعد أن يفيق البشر ويتخلصوا من شرورهم.
- أنا أرفع القبعة لكم يا نانا، فأنتم أدهى وأذكى من أقوى أجهزة الاستخبارات في العالم.

- ضحكت في سعادة لهذا الإطراء وقالت:
- سأرسل لك الخطاب بالإيميل، وسأكلمك غدًا لنتفق على الخطوات التالية.

### ٣٠. الخطاب السري

عدت إلى منزلي، وبالطبع وجدت حوله بعضًا من الصحفيين في الجرائد والمواقع الإلكترونية، والذين ينتظرون قدومي. وبمجرد اقترابي، بدأوا يوجهون لي الأسئلة المختلفة عما أعرفه من معلومات مستقبلية عن الأشجار.

ولكنني وكما اتفقت معي نانا، أن الأفضل ألا أتحدث معهم، وكل ما أريد قوله يكون فقط عبر الفيديوهات الرسمية التي أنشرها على موقعي بمساعدة فريق عملي.

يجب أن أعترف أنني صرت فجأة معروفًا ومشهورًا، ولكنه شيء لا يسعدني؛ لأنه جعلني مقيدًا في كل كلمة أنطق بها أو تصرف أقوم به.

دخلت المنزل، فوجدت فهيم يكتب على اللاب توب الخاص به في غرفة المعيشة.

وبمجرد أن رأيته، ترك ما كان يفعله وقال لي:

"يا باسم، أريد أن أخبرك بشيء هام."

قلت: "ما هو؟"

قال فهيم: "لقد اتصل بي عدة صحفيين، وأخذوا يسألوني عنك، وعن ما تفعل بالتفصيل في حياتك بالمنزل، ولكنني رفضت تمامًا أن أمدهم بأية معلومات."

ربُّتُ على ظهره وشكرته.

ثم دخلت حجرتي وأنا أفكر: كيف أن فهيم شخص طيب وشهم؟ لِمَ لم نكن أصدقاء رغم إقامتنا في منزل واحد؟ ربما بسبب انشغالنا الدائم، وربما بسبب اختلاف نشأتنا ودراساتنا وأسلوب حياتنا. ولكنني اعتقد أنني يجب أن أمنحه وقتًا أكبر في التحدث، فلربما نصبح أصدقاء.

ثم بدأت أقرأ الخطاب السري الذي أرسلته لي نانا، فوجدت التالي:

**"إلى جدتي العزيزة كورونا،**

**أكتب إليك لأخبرك بفخر أنني وأخوتي قد حققنا ما طالما حلمت به: الانتقام لأجدادنا وعائلتنا. لقد تعلمنا من أخطائكم. تذكرت قصصك عن جدي الأكبر الذي أربع العالم بالإنفلونزا الإسبانية، وعن العم بول الذي نشر شلل الأطفال قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه بتلك القطرات الملعونة، وعن العم إيدي الذي جعل البشر فرائس للإيدز. حتى العمة إيبو لم تنجح، رغم أسلحتها الفتاكة بالإيبولا.**

**لكننا الآن أكثر دهاءً. خدعناهم بأننا ضعفاء، فاطمأنوا واحتفلوا، ثم هاجمناهم في كل تجمعاتهم. والآن، ها هم يرتعدون منا، يخشون المصافحة وحتى الاقتراب من بعضهم.**

**لقد أحيينا ذكرى جميع أسلافنا، من الإنفلونزا الإسبانية إلى الجدري والإيدز. نحن نبقى إرث عائلتنا حيًا، ونزرع الخوف في قلوب البشر الذين دمروا كوكبنا بجهلهم. معركتنا معهم لن تنتهي، وسنظل أوفياء لثأركم.**

فلترقدي بسلام يا جدي، مطمئنة أن أبناءك وأحفادك لم ينسوا  
إرثك.

حفيدك المخلص،

أوميكرون"

في تلك اللحظة، فهمت أن الأمر لم يكن مجرد قضية بيئية، بل كان  
دعوة لفهم أعمق للارتباطات بين كل الكائنات الحية والظواهر  
الطبيعية، ورؤية أكبر للمستقبل الذي نحن بصدده مواجهة  
جميعًا. ثم قلت لنفسِي: "وكيف سيتم التعاون بيننا وبين  
الميكروبات؟"

في اليوم التالي، تقابلت مع نانا عبر الزوم.

- سألتني: "ما هو شعورك بعد كل ما علمته من معلومات  
حتى الآن يا باسم؟"
- قلت: "أشعر بأنني كنت فاقد البصيرة، وكل يوم أكتسب  
بعض القدرة على الرؤية، ولكن دعك من شعوري الآن، فما  
يهمني هو معرفة خطواتنا التالية."
- قالت: "لقد ساعدتنا الملكة بسخاء، وأعطتنا معلومات خطيرة  
يمكننا أن نستخدمها."
- سألت: "وما هي؟"
- قالت: "لقد أعطتنا الشفرات الجينية لبعض الميكروبات التي  
ستظهر في المستقبل القريب."
- سألت: "ماذا تقصدين؟"

- قالت: "سأذكرك يا باسم بأن هناك ميكروبات مثل فيروس الإنفلونزا قادرة على التحور بصورة مستمرة. ولذلك فإن أمصال الإنفلونزا يتم تغييرها كل عام لتشمل المتحورات الجديدة"
- قلت: "هذا كلام معروف."
- قالت: "لقد سربت لنا الملكة شفرات لبعض الميكروبات التي ستتحور في القريب العاجل. أي أن هذه الميكروبات لم تظهر بعد في عالمنا، ولا يعلم العلماء أو الباحثون عنها شيئاً. وهذه الميكروبات قادرة على بدء جائحة جديدة خلال شهور قليلة، وما علينا سوى أن نقول إننا نمتلك هذه المعلومات، وسترى كيف سيتهافت العالم للحصول عليها."
- سألت: "وكيف سيصدقوننا؟"
- قالت: "هذه هي خطتنا الجديدة. ستعلن أنت الأخبار، وحين يطلبون الشفرات، سنعطيمهم الشفرة لواحد فقط من الميكروبات، وسيكون هذا الميكروب قليل الخطورة، وبعد أيام قليلة سيظهر هذا الميكروب بالفعل."
- قلت: "الله الله، سأكمل لك ما تودين قوله. حين يظهر المتحور قليل الخطورة، سيثقون في كلامنا، وسيخافون من ظهور المتحور شديد الخطورة، والذي سيؤدي إلى جائحة، وعليه سينفذون كل ما نطالبه بخصوص البيئة."

### ٣١. حيرة قلبي وسري الخفي

بعد انتهاء جلسة الزوم مع نانا، قررت إجراء مكالمة جماعية مع أمي ويمنى لاطلاعهما على المستجدات كفريق عمل واحد. لكن خلال المحادثة، لاحظت شيئًا لطيفًا لم ألاحظه من قبل. لقد شد انتباهي أن أمي ويمنى لديهما العديد من نقاط التوافق، وكثيرًا ما تطرحان أسئلة متشابهة أو تقدمان اقتراحات متطابقة. ولكن، كيف يحدث هذا؟ ربما لأنهما نساء مصريات؟ رغم اختلاف الأعمار والخلفيات الثقافية! لا يهم السبب، لكن بدا واضحًا وجود تفاهم حقيقي بينهما، ولن أنكر أن هذا التفاهم أسعدني كثيرًا.

بعد انتهاء المكالمة، شاركت يمى بما لاحظته. ابتسمت بحياء وقالت:

"لي الشرف أن أشبهه بأمك. أراها سيدة عظيمة بذاتها، ويكفي أنها أنجبت ابنًا مثلك."

لامس إطراء يمى وترًا حساسًا في قلبي. بالطبع، يسعد أي رجل أن تشي عليه فتاة جميلة ورائعة مثل يمى، لكن ما شعرت به كان أعمق من مجرد إرضاء غروري كرجل. كان تقديرًا حقيقيًا لقيمة يمى في حياتي، وكيف أن كلماتها تمثل لي الكثير. فجأة، وجدت نفسي أفتح لها قلبي، وأشاركها حقيقة مشاعري تجاه أمي، تلك المرأة التي ضحت بنفسها منذ شبابها المبكر، أولاً من أجل والديها ثم من أجلي، ونادرًا ما تطلب شيئًا لنفسها.

علّقت يمنى قائلة:

- "تعرف يا باسم، هناك حالة يسمونها متلازمة البنت الطيبة (Good Girl Syndrome). تحدث هذه المتلازمة للفتيات اللاتي يؤثرن الآخرين على أنفسهن، فنجدهن دائمًا في حالة إيثار وإنكار للذات. وإن لم يفعلن ذلك، يشعرن بالذنب تجاه ذويهن."
  - استفسرتُ مستغربًا: "ولماذا تُسمى متلازمة؟ هذه صفة جميلة."
  - ردّت: "لأنها تؤثر سلبيًا على الفتيات الطيبات. مثلًا، لا يتحدثن عما يزعجهن خشية إغضاب الآخرين، ولا يردن الإساءة أبدًا. كما لا يجعلن من أنفسهن أولوية، بل يضعن الآخرين دائمًا في المقدمة. هذا السلوك قد يؤدي إلى مشكلات صحية وضغوط نفسية على المدى البعيد"
- تأملتُ كلامها، وتذكرت كيف أن أمي لطالما ضحّت، ليس فقط في الأمور الكبيرة، بل حتى في تفاصيل الحياة اليومية. هي دائمًا ترحب باختياراتها؛ فهي لا تختار مطعمًا عندما نخرج لتناول الطعام، بل تترك القرار لي ولوالدي، وتقول: "اختراروا ما تحبون، أنا سعيدة معكم." وفي المصيف، أو حتى عند مشاهدة الأفلام، تكرر نفس الأمر: "أنا معكم." ثم تذكرت أيضًا أزمات صحية عديدة مرت بها منذ كانت في العشرينيات من عمرها، فقلت ليمنى:

• "على فكرة، أنتِ محللة نفسية ممتازة، وأرى لكِ مستقبلًا رائعًا. تحليلك يفسر لي الكثير من المشاهدات التي لم أفهمها في حياتي عن أُمي. أغلب الظن أن أُمي مصابة بهذه المتلازمة."

بعد انتهاء المكالمات، قضيت يومي أفكر، ولا شيء غير التفكير. كنت أفكر في المسؤولية الكبيرة التي وضعت اليوم على عاتقي، وكيف أصبح الموضوع مختلفًا تمامًا. كنت أتحدث عن آفة تصيب الأشجار، واليوم سأتحدث عن ميكروب سيصيب البشر. هل سيصدقونني؟ إذا صدقوني، كيف سيتعاملون معي ومع هذا الموضوع برمته؟ أسأل نفسي: هل أنا قادر على التعامل مع هذا المستوى من الجدية والخطورة؟ هذا تحدٍ كبير وأشعر بثقل المسؤولية. أنا شخص تربي على الحذر والحيلة، شخص اعتاد على أن تكون الحياة بسيطة وآمنة. تربييت على يد جدة تحمد الله إذا مر يومها بأمان. وأم ترتعب إن تأخرت قليلًا، وأب يحذرنني من اختطاف العصابات إذا اختفيت عن نظره، ومجتمع يخاف من الضحك، ويخاف من أي شيء مختلف لم يعتاده. كيف لشخص مثلي، نشأ في هذا الجو الحذر والقلق، أن يمتلك الشجاعة والقوة لمواجهة هذا التحدي الكبير؟ ولكنني تذكرت كلمات شوشو لي: "لا تخف.. نحن معك، والأهم من ذلك تذكر أننا قمنا باختيارك للمهمة وسط مليارات البشر لأننا وثقنا في قدراتك، فيجب أن تثق أنت أيضًا في قدراتك." وبينما أفكر في هذا، تطرأ على ذهني صورة يمني، بابتسامتها الخجولة، وكلماتها التي ما زالت تتردد في أذني:

"الشرف لي أن أشبّه بأمك. أراها سيدة عظيمة بذاتها، ويكفي أنها أنجبت ابناً مثلك." ماذا تعني يمنى بكلمة "مثلك"؟ هل ترى فيّ نفس العظمة التي تراها في أمي؟ أم تراني طيباً، خلوقاً، أو مجرد شخص تدعمه بعد أن سمعت عن تضحيات أمي؟ هل هناك شفقة في كلماتها؟ لكن لا، لا أظن ذلك. رأيت خجلها الصادق في تلك اللحظة، وملامح وجهها كانت تحمل شيئاً خاصاً، شيء يبعث في نفسي الارتياح. ما يحيرني هو كيف استطاعت يمنى أن تجمع بين الحياء الشرقي وقوة شخصيتها واستقلالها؟ كيف تحافظ على هذه السمات وهي فتاة تدرس بالخارج، بعيداً عن عائلتها وعن عادات المجتمع الذي نشأت فيه؟ تساءلت: هل أنا معجب بها؟ كيف لي أن أكون معجباً بها بعد أن خرجت من تجربة عاطفية غير موفقة مع لورا؟ ثم تذكرت لورا. كانت على طرف نقيض من يمنى. لورا كانت جريئة، ولم تتردد في تشجيعي على بدء علاقة بيننا. هي التي أخبرتني أولاً عن مشاعرها تجاهي. أتذكر كيف كانت تتحدث ببساطة عن حياتها، ولا تخجل من إخبار الآخرين بما تشعر به. قالت لي في إحدى المرات: "لن آتي إلى الجامعة اليوم، لأنني في أول يوم من دورتي الشهرية." وبصراحة، كرجل، شعرت بالحرج عندما سمعتها تقول ذلك. ولكن لورا كانت دائماً تشجعني على نقل علاقتنا إلى مرحلة أكثر جدية. كانت تقول لي: "لنكن أكثر من مجرد أصدقاء، دعنا نكون كما لو أننا في علاقة مساكنة." كانت تفتح قلبها بسهولة، وتشاركني أفكارها بلا حواجز. أتذكر كيف شعرت بالقلق

والتردد عندما بدأت علاقتنا تأخذ منحىً أكثر جدية. رغم أن هذا التحرر هو ما جذبني إليها في البداية، إلا أنني بدأت أشعر بقلق كبير، فشخصيتي تختلف عن شخصيتها. هي كانت فتاة قوية الشخصية، تقود دراجتها البخارية بنفسها، وتذهب في رحلات طويلة بمفردها بعد انتهاء دراستها الثانوية. كانت قد زارت دولاً آسيوية مثل سنغافورة وماليزيا وإندونيسيا وهونج كونج، وتحدثت لي عن مغامراتها في تلك الأماكن. كيف لشخص مثلي أن يعجب بنموذج لورا، الذي كان جريئاً ومتحرراً إلى حد بعيد، ويشعر بقدر أكبر من الانجذاب لنموذج يمى، التي تحمل صفات الحياء الشرقي والاستقلالية الرقيقة؟ هذا التناقض في مشاعري يحيرني. أعتقد أنني لازلت محتاجاً لاكتشاف نفسي وتقوية قدراتي على تحليل ذاتي. ولكن تفكيري عن علاقة يمى وأمي ذكرني بالسر الذي علمته ولم أخبر أمي به وأشعر بوخز ضميري بسبب كتمانها. استرجعت في ذاكرتي ما حدث. حين كبرت والتحقت بالجامعة وصرت رجلاً، لاحظت أن معظم العائلات بالمحل لدى والدي هن من الجميلات ذوات الميوعة الواضحة واللواتي يطلق عليهن بالعامية المصرية "بنات مايصة". بل وبعضهن كن غير منضبطات، حتى أنني سمعت عن "عزة"، وهي أكثر من عملت لدى أبي خلاعة وميوعة، وكنت أجدها كثيراً تتناول الإفطار معه بالمحل ويتبادلان المزاح (وهذا مشهد لم أراه أيضاً في حياتي بين أبي وأمي). ولكن السر الخطير كان أنني سمعت أنه تم القبض

على عزة تلك في منزل لبائعات الهوى، وكانت ضمن شبكة تديرها سيدة، وأن عملها بالمحل كان واجهة فقط لها كي تفسر مصدر نقودها ولجذب الزبائن الأثرياء أحياناً. اضطرّ والدي بعد هذه الفضيحة إلى فصلها من العمل، وأخذ يتحدث عنها بكل سوء ويحكي كيف أنه خُدع فيها مثلما خُدع فيها جميع من تعاملوا معها وظنوا أنها فتاة محترمة. ولكن أسوأ ما علمت بالصدفة هو أن أبي كان على علاقة غرامية بها، ولكن المصيبة الأكبر التي عرفتُها لاحقاً أنه كان قد تزوجها عرفياً قبل حدوث هذه الفضيحة لها. أنا كرجل شعرت أن هناك احتمالين لا ثالث لهما: إما أن أبي رجل غير منضبط وكان سعيداً بوجود هذه الساقطة معه، وربما كان أحد زبائنها أو تزوجها عرفياً كما تقول الإشاعات، أو أنه رجل أبله يسهل الضحك عليه من أمثال هؤلاء الساقطات وتمثيل دور البراءة عليه. وفي الحالتين سقط والدي من نظري وفقد ما لدي من بقايا احترام له. ولكنني مع ذلك لم أجرؤ على إخبار أُمِّي بأي من هذه المعلومات حتى لا أجرح مشاعرها.

### ٣٢. إغراءات عبر القارات

قمت بتسجيل الفيديو الجديد الذي سأشارك فيه العالم بالمعلومات المهمة التي حصلنا عليها من ملكة الميكروبات. كنت قلقًا ومضطربًا أثناء التسجيل، حتى أن زانج، الذي أصبح فردًا رئيسيًا في فريقي، لاحظ ذلك. فريقي توسع ليشمل بالإضافة إلى الأشخاص الرئيسيين بعض الزملاء الذين تعرفت عليهم خلال فترة إضرابي عن الطعام، حيث وقفوا إلى جانبي ودعموني. كنا جميعًا على تواصل مستمر من خلال لقاءات عبر منصة "زوم"، ناقش خلالها الخطوات التي يمكن اتخاذها. كان كل أفراد الفريق يعملون على نشر الفيديوهات التي أسجلها على صفحاتهم، ويرسلونها إلى أقاربهم وأصدقائهم في بلدانهم بمجرد نشرها. بعد نشر الفيديو الأخير، حقق تفاعلًا مذهلاً، إذ وصلت المشاهدات والتعليقات إلى أرقام قياسية وزاد عدد الصحفيين الراغبين في التواصل معي بشكل كبير، مما أضفى شعورًا بالمسؤولية وأشعل في داخلي الحماس لمواصلة العمل. تصدر الفيديو الأخبار المحلية والعالمية وكالعادة جاء المحللون الإخباريون والعلماء ليتحدثوا عن موضوعي. تم التواصل معي من قبل عدة مراكز شهيرة للبحث العلمي في أبحاث الصحة العامة والأوبئة والميكروبات. أحدهم في الولايات المتحدة، والآخر في روسيا،

والثالث في الهند، وآخرهم في الصين. شعرت فجأة بأن أطراف القوى العالمية يتواصلون معي.

الكل يطلب مني مقابلتهم وبدأت اللقاءات، وكان لكل منهم أجندة مختلفة. فالمركز الأمريكي كان مهتمًا بما أفعله بخصوص إنقاذ الأشجار، وقيل لي إن التوجه السياسي لا يود إثارة البلبلة بشأن مشاكل البيئة لأنه سيشجع استخدام الوقود الأحفوري، ولذا فهم يريدون التفاوض معي للتوقف عما أفعل. أما المركز البحثي الروسي، فكان يود معرفة الطريقة التي حصلت منها على رسائلي تحديداً، والمركز الهندي فلقد كان اللقاء غريبًا وكان يدور حول مخاوف من استخدام ما لدي من معلومات من دول أخرى في الحروب البيولوجية ضدهم. والمركز الصيني ركز تمامًا على رسالة أوميكرون بخصوص كورونا، قائلين إن العالم اتهم الصين بأنها من بدأت الوباء في مدينة ووهان الصينية، وهذه قد تكون فرصة لتبرئة ساحتهم. تضمنت اللقاءات عروضًا مغرية وأموالًا ضخمة وفرصًا رائعة لانضمامي للعمل لديهم.

كان الإغراء قويًا، ولكنني شعرت بإحساس قوي من الاستغناء ورفضت كل هذه العروض. شعرت بأنني صرت صاحب رسالة سامية في هذه الحياة، وأن قبولي بالانضمام لدولة ما بعينها هو خيانة لرسالتي، والأفضل أن أكرّس وقتي لحماية الكوكب كله. فأنا لا أريد أن أكون جزءًا من صراعات أو انحيازات سياسية أو أجندات خفية.

اتصلت بإدوارد وأبلغته أنني أرغب في مقابلته عبر الزوم، فوافق وأخبرته بكل شيء، وأخبرته أيضًا عن العروض التي تلقيتها، وأخبرته برفضه لهم جميعًا، وطلبت منه الوقوف إلى جوارى. لكنه هز رأسه غير مصدق. فقلت له: "سأعطيك الشفرة الأولى للمتحمور قليل الخطورة، وابدأ الأمر بطريقتك."

بعد يومين، اتصل بي إدوارد وطلب مقابلي في منزله وليس بالجامعة، وطلب مني التخفي عند الخروج حتى لا يتعرف علي الصحفيون.

طلبت من فهم مساعدتي، فأعطاني أحد أطقم العمل التي يرتديها في محل البييتزا الذي يعمل به. نصحتني بحلاقة شعري تمامًا أو تلوينه، فاخترت حلقته. وبالفعل، استخدمت ماكينة الحلاقة لأصبح أصلع تمامًا، ثم ارتديت قبعة مائلة لإخفاء جزء كبير من جبهتي، وأضفت نظارته الشمسية الكبيرة. كما أعطاني حقيبة توصيل الطلبات الخاصة به، ونزلت متنكرًا كأحد زملائه في العمل. مشيت بسرعة باتجاه الطريق الرئيسي، حيث كانت إيميلي تنتظرنى بسيارتها لتوصلني. وعند وصولي إلى منزل إدوارد، وجدت هناك أستاذًا في علم الميكروبات يُدعى رودني، وهو صديق طفولة لإدوارد، ويعمل في أحد المراكز البحثية الكبرى. وأخبرني رودني أن المتحمور الذي أعطيت شفرته لإدوارد لم يكن معروفًا سابقًا، لكنه اكتُشف اليوم فقط في أحد أهم مراكز الأبحاث الأمريكية.

لأول مرة، رأيت نظرات التصديق في عيني إدوارد، وبدأ يتحدث معي بجدية علمية، دون أن تساوره الشكوك حول إصابتي بمرض نفسي أو احتمالية كوني إرهابيًا. كان ذلك تطورًا أسعدني للغاية على المستويين الشخصي والعلمي.

أما رودني، فقد أبدى قلقه بشأن ظهور هذا المتحور، مشيرًا إلى احتمال بدء جائحة جديدة. شدد على ضرورة التحرك سريعًا، وأكد أنه سيتواصل مع منظمة الصحة العالمية، باعتبارها الجهة المسؤولة عن صحة الكوكب بأكمله.

نصحتني إدوارد بالبقاء لديه بضعة أيام لتجنب إزعاج الإعلام والصحافة حتى تتضح الأمور، لكنني شعرت بالحرَج. شكرته بصدق وأخبرته أنني ربما أذهب للبقاء مع زانج.

بعد هذا اللقاء، اتصلت بيمنى وأخبرتها بالقرارات التي اتخذتها بشأن بعض العروض المقدمة لي. تهلل وجهها فرحًا، وقالت إنها فخورة جدًا بما أقوم به.

### ٣٣. وصف من قلب الحدث

بينما كنت مقيمًا لدى زانج، وصلتني تعليمات من نانا بضرورة بدء إضراب عن الطعام للمرة الثانية، مع التأكيد على نشر خبر الإضراب على نطاق واسع.

عُقد اجتماع طارئ لفريق العمل الذي صار كبيرًا جدًا لمناقشة كيفية بدء الإضراب بطريقة تحدث صدى عالميًا وتجعل قضيتنا محور الأحداث. كان الهدف واضحًا: إيصال رسالتنا بقوة وتحقيق تأثير كبير.

اخترت حديقة البوتانيك جاردن مكانًا لإضرابي عن الطعام. شعرت أن هذا الموقع يحمل رمزية خاصة؛ فهو ملتقى للطبيعة والناس، وفيه شجرة قديمة مهددة بالقطع كانت بمثابة محور قضيتي. أردت أن أوصل رسالة واضحة للعالم بأن إنقاذ الأشجار يعني إنقاذ الحياة.

نفذت ما اتفقنا عليه أنا وفريق العمل بخصوص المظهر، فارتديت قميصًا بسيطًا كتب عليه: "أوقفوا قطع الأشجار: حياتنا في خطر." اخترنا الألوان الطبيعية، سرورًا أخضر وقبعة بيضاء تحمل شعار شجرة، لأننا أردنا أن أكون جزءًا من المشهد البيئي الذي أحياه. وعلقت لوحًا خشبيًا حول عنقي مكتوبًا عليه: "من أجل الأشجار، ومن أجل صحتنا جميعًا، أضرب عن الطعام." كما ارتديت شارة صغيرة تلخص مطالب الأشجار لتكون واضحة لكل من يقترب.

نصب زانج وفهيم ومهند خيمات صغيرة بجانب الشجرة المهددة، وعلقوا لافتات توضح أهمية الأشجار في مواجهة الكوارث البيئية والصحية.

وقفت اليمنى وآن واليسون مشرفتي، التي جاءت أيضًا لدعمني، يوزعون أكوابًا صغيرة تحتوي على بذور أشجار، وشجعوا كل زائر على زرعها في أي مكان ليس به زرع أو أشجار. إذ كانت هذه طريقتنا لربط رسالتنا بإجراء عملي، مهما كان بسيطًا.

في صباح اليوم التالي بدأ الكلام عن إضرابي عن الطعام يتصدر نشرات الأخبار، وبدأ مؤيدون كثيرون يتوافدون على الحديقة، وبعضهم نصب خيامًا وقرر الاعتصام تأييدًا لي. أردت أن أكون في قلب الطبيعة، قريبًا من الناس، وقريبًا من القضية التي أضرب لأجلها. الحديقة كانت منصة مثالية، ومع كل نسمة هواء وكل ظل ألقته الشجرة، كنت أزداد إصرارًا على إيصال صوتي للعالم.

وصلت كارين مدربة اليوجا، ومعها مجموعة من الزملاء. كانوا يحملون الورود والشموع في أيديهم، مكونين دائرة سلام حولي تعبيرًا عن تضامنهم مع رسالتي لحماية البيئة. وضعوا الشموع على الأرض بشكل هندسي رائع، فيما تبعثرت الورود حولي كأنها لوحة فنية نابضة بالحياة.

قدمت إيميلي ورفاقها بعد العروض للرقصات اللاتينية مثل السامبا والزومبا، ثم ارتفعت أصوات الدبكة اللبنانية في الأرجاء، لأن زملائي نظموا رقصة دبكة جماعية. كان المشهد مبهجًا، أقدامهم تتمايل بتناغم وسط تصفيق الحضور.

ثم بدأت تتوالى عروض أخرى: أغان ورقصات من الجالية الهندية برفقة أصوات الطبول، وفرقة يابانية صغيرة أدت رقصة تقليدية مرتدين الكيمونو، وفريق أفريقي يعزف الإيقاعات المميزة ويغني الأهازيج الشعبية.

وسط الأجواء المفعمة بالفرح والتنوع الثقافي، انضم إلينا وفد صغير من السكان الأصليين (الأبوريجينال). جاءوا حاملين هدايا رمزية مثل قطع من فنهم التقليدي المرسوم على لحاء الشجر. كانوا يرددون كلمات تعبر عن ارتباطهم الوثيق بالطبيعة، حيث قال أحدهم: "الشجرة ليست مجرد كائن حي؛ إنها روح الأرض وحارس الزمن، تمامًا كما أنتم أيها الفراغة كنتم حراسًا للحضارة والتاريخ."

ثم أضافوا برقة: "نحترم حضارة الفراغة لأنها، مثلنا، تمتد جذورها عميقًا في الأرض، والشجر بالنسبة لنا يعني الحياة، الظل، الحكمة، والطاقة المتجددة" هذه الكلمات البسيطة حملت في طياتها رسالة سامية عن المشترك الإنساني بين الثقافات القديمة والحديثة، وعن الاحترام المتبادل بين الحضارات التي تعزز جذورها وتاريخها. تحوّلت المنطقة المحيطة بي إلى مهرجان فني وثقافي، تعزف فيه موسيقى من كل أنحاء العالم. ألوان الأزياء التراثية المختلفة، وأصوات الأغاني من لغات متعددة، والرقصات التي تعبّر عن كل ثقافة كانت بمثابة جسر يعبر فوق الاختلافات لتوحد الجميع حول هدف واحد: حماية الكوكب.

### ٣٤. ضعف الجسد وقوة الإرادة

بعد عدة أيام من إضرابي عن الطعام في حديقة البوتانيك جاردن، بدأت آثار الجوع تظهر بوضوح على صحتي. شعرت بضعف عام، وبدأت أطرافي تفقد قوتها تدريجيًا. كان الصداع شبه دائم، وأحيانًا تداهمني دوخة تجعلني أحتاج إلى الجلوس فورًا. فقدت بعض الوزن، وأصبحت ملامحي أكثر حدة، لكن عزمي ظلت صلبة. بعد اليوم الخامس، لاحظت أن قدرتي على التركيز تتناقص، وبدأت أشعر بإرهاق كبير حتى في أبسط الحركات. حينها تدخل الفريق الطبي التطوعي الذي كان يراقبني باستمرار. قرروا تعليقي على المحاليل الوريدية لتجنب الجفاف وضمان الحد الأدنى من العناصر الغذائية اللازمة لبقاء جسدي قادرًا على التحمل. كانت المحاليل عبارة عن سوائل ملحية ومغذيات بسيطة، تهدف فقط إلى إبقائي على قيد الحياة، دون المساس بروح الإضراب. علقت المحاليل في عمود معدني بجانب خيمتي، وكنت أجلس تحت الشجرة بينما الإبرة تتصل بذراعي. كنت أشعر بأن هذا المشهد بحد ذاته رسالة قوية؛ فهو يعكس التناقض بين حياة تستمر بشق الأنفس والطبيعة التي قد تحتضر بصمت إذا لم تتدخل.

وجود المحاليل لفت الانتباه بشكل أكبر. الزوار كانوا يسألونني عن حالتي، والإعلام بدأ يتساءل: "إلى متى يستطيع الاستمرار؟" كان

هذا الاهتمام هو ما أريده تمامًا. أردت أن يفهم الجميع أنني أضع حياتي على المحك لإيصال صوت الطبيعة، وأنتي لن أترجع حتى يتم اتخاذ خطوات حقيقية لإنقاذ الأشجار ووقف تدهور البيئة. على الرغم من معاناتي الجسدية، كنت أشعر براحة نفسية عميقة. كل ألم كان يدفعني للإصرار أكثر، وكل لحظة ضعف كانت تذكرني بقوة الرسالة التي أحملها. الآن، أصبح إضرابي حديث الجميع، وبات الناس يدركون أن المسألة ليست مجرد قضية بيئية، بل معركة من أجل الحياة ذاتها. في صباح اليوم التالي بدأ الكلام عن إضرابي عن الطعام يتصدر نشرات الأخبار.

كنت في فترات نومي أتخيل نفسي صغيرًا أشاهد أحد زويل رحمه الله ويأتيني صوت أمي وهي تقول:

"هذا هو مستقبلك؛ ستكون مثله عالمًا عظيمًا وسأفخر بك، بل ستفخر بك مصر كلها، كما تفخر بالعمالقة مثل زويل، ونجيب محفوظ، ومجدي يعقوب، وغيرهم من العظماء."

فأشحن همتي وتزداد عزمي قوة وأصمم على عدم التراجع. أتممت أسبوعًا من إضرابي عن الطعام وكان هذا إنجازًا كبيرًا.

ثم فوجئت بنشرات الأخبار تعلن خروج إدوارد عن صمته ونشره بيانًا مشتركًا مع رودني يعلنان تضامنهما معي ومع رسالتي للحفاظ على الأشجار والبيئة. وفجر رودني مفاجأة حين أعلن في البيان أنه تأكد من صحة ما قلته علميًا بخصوص الشفرات وأنه يوجه نداء لمنظمة الصحة العالمية للوقوف إلى جوارى حتى نمنع

وقوع كارثة انتشار المتحور الخطير وحدثت جائحة والعالم لم يتعاف بعد من تداعيات جائحة كورونا على المستويات الصحية والاقتصادية.

في الأيام التالية كانت المفاجأة من العيار الثقيل حيث بدأت الوفود العربية بالتوافد على مكاني. أول من جاء كان وفدًا فلسطينيًا، أحدهم يحمل زجاجة زيت زيتون قائلاً: "هذا الزيتون من أشجار فلسطين، رمزنا وصمودنا." كان يرتدي شالًا فلسطينيًا، مُذَكِّرًا الجميع بقيمة الأرض والشجر.

ثم جاء اللبنانيون حاملين معهم ورود الأرز، وقال أحدهم بابتسامة: "الأرز رمزنا في لبنان، ونحن معك."

بعد ذلك، ظهر وفد سعودي، وأحدهم قال بثقة: "نحن قبلة المسلمين، ورسولنا صلى الله عليه وسلم قال: إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرها. هذا هو جوهر الإسلام وروحه، أن نحمي الأرض ونزرع الأمل."

تبعهم وفد عراقي، وقال أحدهم بفخر: "نحن أهل العراق، وحدثنا بابل إحدى عجائب العالم القديم. حماية البيئة هي جزء من حضارتنا."

ثم جاء تونسي وهو يلوّح بعلم بلاده قائلاً: "نحن تونس الخضراء، لطالما كنا جزءًا من الطبيعة، ودعم هذه القضية واجب علينا." وفد سوري قال: "نحن أقرب الدول قلبًا لمصر، وتشهد وحدتنا السابقة على ذلك، وها نحن هنا لدعمك."

كانت تلك اللحظات مليئة بالعواطف والفخر، حيث شعرت بوحدة العرب وتكاتفهم حول قضية إنسانية تتجاوز الحدود. وجدت الأنباء تعلن خروج مظاهرات تدعمني في شوارع برزبن، نظمت هذه المظاهرات مؤسسات تعمل في مجالات الحفاظ على البيئة وتقليل آثار تغير المناخ وكان المشاركون في هذه المظاهرات يرتدون جميعًا فانيلات قطنية (تي شيرتات) مطبوع عليها صورتي بالزي الفرعوني، تلك الصورة التي التقطت لي وقت إضرابي عن الطعام. وجدتهم يحملون لافتات يطالبون فيها بضرورة إنقاذ الأشجار والبيئة ودعمي في رسالتي. امتدت المظاهرات لتشمل الجالية العربية كلها في برزبن ثم في سيدني وملبورن وسائر المدن الكبرى في أستراليا.

بدأت أكتب يومياتي وأوثق التحديات التي أواجهها، حيث أدعو المنظمات البيئية والصحية العالمية لزيارة موقعي والتعاون معهم لرفع الوعي.

### ٣٥. مشاهد الحب والانتصار

بعد عدة أيام من تصاعد الأحداث، بلغت حالي الصحية مرحلة حرجة. اضطر الفريق الطبي لإسعافي بشكل عاجل ونقلني إلى المستشفى بعد أن فقدت وعيي أثناء إلقاء خطاب صغير تحت الشجرة. داخل غرفة صغيرة ذات جدران بيضاء وأسرة معدنية باردة، كنت مستلقيًا أراقب الأخبار على شاشة التلفزيون الصغيرة المثبتة في الزاوية. هاتفي المحمول في يدي، مليء برسائل الدعم التي لا تتوقف.

بينما كنت أستعيد وعيي تدريجيًا، كنت أشاهد العالم يتحرك. تقارير إخبارية من كل مكان تتحدث عن "الناشط الذي أضرب عن الطعام من أجل الأشجار". كانت الصورة التي التقطت لي وأنا في ملابس فرعونية بجانب الشجرة أصبحت أيقونة. بدأت الجمعيات البيئية تظهر في مختلف البلدان، تحمل اسمي ورسائلي كرمز.

**في كندا**، تأسست جمعية أطلق عليها اسم "باسم لمحبي الأشجار"، نظم أعضاؤها مظاهرات سلمية في الحدائق العامة، وبدأوا بزراعة الأشجار تكريمًا لموقفي.

**في أوروبا**، ظهرت منظمة أطلق عليها "أصدقاء الأرض الجديدة"، هدفها دعم أي مبادرات تحافظ على الطبيعة، وقدمت التبرعات لمشاريع بيئية محلية ودولية.

في أمريكا، تشكلت حركة "أوراق الحياة"، التي جمعت الآلاف في مظاهرات أمام مقر الأمم المتحدة، مطالبين باعتبار الحفاظ على البيئة حقًا أساسيًا من حقوق الإنسان. حتى في بلدي الأم، مصر، أسس الشباب منظمة "أبناء النيل"، التي بدأت بحملة ضخمة لتنظيف النيل وزراعة الأشجار على ضفافه.

بعد أيام من المظاهرات العالمية، قررت الأمم المتحدة الدعوة إلى جلسة استثنائية للنظر في القضية. من سرير المستشفى، شاهدت ممثلين عن دول العالم يتناقشون في قاعة واسعة، وشعرت بأن حلمي يتحقق. صدر قرار تاريخي بتأسيس صندوق عالمي جديد يُعنى بمكافحة آثار تغير المناخ وحماية الغابات. ثم، بدعم من الجمعيات العالمية، تم إطلاق مشروع "التحالف العالمي للطبيعة"، الذي تضمن زراعة ١٠ مليارات شجرة خلال العقد القادم، وتخصيص موارد ضخمة لتطوير تقنيات صديقة للبيئة.

شاهدت نشرات الأخبار وهي تعرض مشهدًا لمظاهرة ضخمة في برزبان. الآلاف يهتفون: "من أجل الأشجار، من أجل الحياة!" دمعت عيناى، ليس فقط بسبب الدعم، ولكن لأن رسالتي كانت تصل، وكان العالم يستمع.

في الليل المتأخر، جاءتني مكالمة فيديو وأنا مستلقي على سريري بالمستشفى. ضغطت الزر ولأول مرة أجد على الشاشة الأستاذة نخلة والشجرة الحكيمة معًا، أقصد نانا وشوشو.

نانا بابتسامتها الهادئة، قالت: "باسم، نشكرك من أعماق قلوبنا. لقد قمت بمهمتك على أكمل وجه. والآن يجب أن تتوقف عن إضرابك عن الطعام حتى تبدأ في التعافي."

أما شوشو فأضافت بصوتها العميق والرزين: "الآن، جاء الوقت لتكتشف المربع الأخير في رحلتك مع الوعي بالذات، ذاك الجزء الذي لا يعرفه أحد عنك ولا حتى أنت. لقد أثبت لنا، وللناس جميعًا، أنك بطل بمعنى الكلمة."

شعرت بأن هناك شيئًا عميقًا بداخلي يُفتح للمرة الأولى. أدركت أن رحلتي لم تكن فقط لإنقاذ البيئة، بل كانت رحلة لاكتشاف ذاتي، وقيمتي الحقيقية كبطل قادر على إحداث التغيير.

في صباح اليوم الجديد، وبينما أشعة الشمس الخفيفة تتسلل عبر نافذة الغرفة بالمستشفى، بدأت أفتح عيني ببطء. شعرت بدفء غريب في المكان، وكأن شيئًا خاصًا ينتظرني. نظرت حولي، لأجدها... أمي، تقف بجانب سريري، وملامحها تحمل مزيجًا من القلق والحنان الذي لم أنسه أبدًا. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، لكنها كانت تبتسم، وكأنها تود أن تخبرني أن كل شيء سيكون بخير.

إلى جانبها، وقفت يمنى، وجهها يشع بالنور، وعيناها تتحدثان ألف كلمة دون أن تنطق بحرف. شعرت بشيء يتحرك في داخلي، مزيج من الامتنان والحب الذي لم أتمكن من التعبير عنه من قبل. ابتسمتُ، وأمسكت يد أمي بحنان، وقلت لها بصوت ضعيف لكنه مليء بالإصرار:

**"أمي، لن نفترق ثانية. ستبقين معي هنا أو نذهب لأي مكان آخر، ولن تعودني إلى أبي، لأنه لا يستحقك، هو لا يستحق هذه الروح الطيبة التي تحمليها."**

سامحيني، كان يجب أن أخبرك بذلك من قبل سفري. رأيت دموعها تنهمر، لكنها لم تعترض، بل اكتفت بالإيماء، وكأنها كانت تنتظر مني أن أقول ذلك منذ زمن بعيد. ثم نظرتُ إلى يمنى، التي كانت تحاول كتمان دموعها، لكنها لم تستطع. وأخذتُ نفسًا عميقًا، وجمعت ما تبقى لي من شجاعة، وقلت لها بصوت مليء بالمشاعر:

**"يمنى، هل تتزوجيني؟"**

كان المكان صامتًا تمامًا، حتى أنني شعرت بدقات قلبي تتسارع. نظرت يمنى إليّ بدهشة لبضع لحظات، ثم ابتسمت ابتسامة مشرقة كالشمس، هزت رأسها بالإيجاب وخجلها المعتاد يكسو وجنتيها بالحمرة وارتمت في أحضان أمي، التي لم تتمالك نفسها من إطلاق زغرودة مصرية أصيلة داخل حجرتي بالمستشفى.

في تلك اللحظة، شعرت وكأن العالم كله يتوقف للحظة واحدة، ليمنحنا هذه البداية الجديدة... وتذكرت كلمات الشجرة الحكيمة (شوشو) في البدايات حين قالت لي مقولة التبريزي: كيف يمكن للبذرة أن تصدق أن هناك شجرة ضخمة مخبأة داخلها؟ ما تبحث عنه موجود بداخلك.

لم تكن مجرد نهاية لمعركة خضتها من أجل البيئة، بل كانت بداية حياة جديدة، مليئة بالحب، وبإصرار لا يتزعزع على إكمال رسالتي وعلى الوعي بذاتي.

**تمت بحمد الله**

**بقلم**

**دكتورة هبة مهدي**

## المحتويات

- الملكية الفكرية.....٥
- الإهداء.....٧
١. هل أنا هنا حقًا؟.....٩
٢. دهشة وخوف وإنكار.....١٣
- ٣- التآرجح بين الشك واليقين.....٢٠
- ٤- رحلة الهروب من التفكير.....٢٨
٥. محاولة التطبيق الفعلي.....٣٢
٦. اليوجا والتأمل وحصتي الأولى.....٣٥
٧. من يستحق الثقة؟.....٣٨
- ٨- الطريق إلى السكون.....٤٤
- ٩- الفشل والإحباط.....٤٩
- ١٠- رحلتي مع الوعي بالذات.....٥٦
- ١١- اللحظة الراهنة.....٥٩

١٢. سيناريو الإحباط يتكرر.....٦٢
١٣. القلق البيئي والإحباطات.....٦٤
- ١٤- الغربة... هل هي لعنة؟.....٦٧
١٥. الوعي وجبل جليد.....٧٢
١٦. الكيرتان وسر عزوفي.....٧٦
١٧. زانج وإضاءة العتمة.....٨٠
١٨. إيميلي والمنطقة العمياء.....٨٦
١٩. هل ستختفي القهوة؟.....٩٠
٢٠. همسات وضحكات.....٩٢
٢١. الدعم الإعلامي وانا.....٩٥
٢٢. بزوغ الحقائق.....٩٩
٢٣. شكوك ومخاوف.....١٠٣
٢٤. العطاء والأشجار المثمرة.....١٠٦
٢٥. مع التنفيذ الفعلي.....١١١
٢٦. الجدار والنباتات المتسلقة.....١١٥

٢٧. نجاحات وإخفاقات.....١٢٢
٢٨. تداعيات آفة الفواكه.....١٢٧
- ٢٩- أسرار الطبيعة الأم.....١٣١
٣٠. الخطاب السري.....١٣٥
٣١. حيرة قلبي وسري الخفي.....١٣٩
٣٢. إغراءات عبر القارات.....١٤٥
٣٣. وصف من قلب الحدث.....١٤٩
٣٤. ضعف الجسد وقوة الإرادة.....١٥٢
٣٥. مشاهد الحب والانتصار.....١٥٦

